(٩٨) سورة البيّنة مدنية وآياتها ثمان

سورة البيّنة مدنية ، وهي تتحدث عن اليهود والنصارى ، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق ، وسطعت أنواره ، ومع ذلك كفروا وعاندوا .. كما تتحدث عن عنصر « الإخلاص » الذي أُمر به أهل الأديان جميعاً ، وهو إخلاص العبادة لله جل وعلا ، وإفراده سبحانه بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال لوجهه الكريم دون سواه ، كما تتحدث عن مصير أهل الإجرام – من كفرة أهل الكتاب والمشركين – إلى نار الجحيم ، وعن مصير أهل الإيمان والإخلاص إلى جنان النعيم ، ، مع الفضل ، والإحسان ، والإنعام في جوارِ ربٍّ رحيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البينة[١]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[١]

قوله تعالى: **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة،** ذَكَر في حق أهل الكتاب: **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**، بحرف "**مِن**" وهو للتبعيض، ولم يقل: "أهل الكتاب"، وذَكَر في حق أهل الشرك[٢] **والمشركين**، لأن أهل الكتاب كانوا فِرَقا: منهم من كان آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل / أن يُبعَث،[٣] فلما بُعث كفروا به. [٩١٦ظ]
ومنهم من كان[٤] كافرا به فلما بعث[٥] آمن به ولزم[٦] الإيمانَ به. ومنهم من كان كافرا به، فلما بعث[٧] وأرسل لزم الكفرَ به ولم يؤمن؛ فلمّا كانوا[٨] أصنافا وفرقا[٩] قال: **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**، بحرف "**مِن**". وأما المشركون فإنهم كانوا صنفا واحدا.

---

١ ر – سورة البينة؛ ن: ذكر أن سورة لم يكن مدنية؛ ث + وهي ثمان آيات مكية؛ م: ذكر أن سورة البينة مدنية.

٢ ر م: أهل الكتاب.

٣ جميع النسخ + ومنهم من كان كافرا به.

٤ ن + كان. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٥٤ظ.

٥ ن + وأرسل لزم الكفر به. والتصحيح من المرجع السابق.

٦ ن: فلزم. والتصحيح من المرجع السابق.

٧ ر ث م – كفروا به ومنهم من كان كافرا به فلما بعث آمن به ولزم الإيمان به ومنهم من كان كافرا به فلما بعث.

٨ م + كانوا.

٩ جميع النسخ + لذلك.

ثم لم يبين بأنهم إذا أتاهم البينة ينفكّون أوْ لا؟ وجائز أن يكون قوله عز وجل: **لم يكن** إلى[1] قوله **حتى تأتيهم البينة**، أي لم يكن بعض أهل الكتاب وبعض المشركين منفكين من الكفر؛ لأنه عَطَف المشركين على أهل الكتاب، كأنه قال: من أهل الكتاب ومن المشركين، ولذلك خفض المشركين و لم يقل: والمشركون، بل كانوا أهل كفر وشرك إلى آخر عمرهم وإن أتتهم[2] البينة. والبينة هي ما في خلقة[3] كل أحد مما يدلّ على ألوهيته[4] ووحدانيته. ويحتمل أن بعضا من الفريقين على الشرك حتى تأتيهم البينة وهي معاينة العذاب عند الموت، كقوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا،[5] ونحو ذلك. وذكر في حرف ابن مسعود رضي الله عنه: لم[6] يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين،[7] وفي حرف أبيّ: ما كان الذين أشركوا من أهل الكتاب والمشركين [منفكين].[8]

ثم اختلف في قوله عز وجل: **منفكّين**، قال بعضهم: لم يكن الذين كفروا[9] من أهل الكتاب والمشركين منتهين زائلين عن الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة. وقال بعضهم: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين[10] خارجين من الدنيا حتى تأتيهم البينة.

ثم اختلفوا في البينة التي ذُكر أنها تأتيهم. قال بعضهم: البينة رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حيث قال على أثره: رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً.[11] وقال بعضهم: ما جاء به[12] رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[13] من الحُجج.

---

[1] ر: أي.

[2] ر: وإن أتيتهم.

[3] ث: في خلقه.

[4] ر: على ألوهية.

[5] ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ (سورة المؤمن، ٨٤/٤٠).

[6] ث ن: لمن.

[7] *الجامع لأحكام القرآن* للقرطبي، ١٤٢/٢٠؛ ومعجم *القراءات* لعبد اللطيف الخطيب، ٥٢٣/١٠.

[8] قرأ أبيّ بن كعب: ﴿فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين﴾ (*الجامع لأحكام القرآن* للقرطبي، ١٤٢/٢٠؛ ومعجم *القراءات* لعبد اللطيف الخطيب، ٥٢٣/١٠).

[9] ر ث م – كفروا.

[10] ث – منتهين زائلين عن الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة وقال بعضهم لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.

[11] الآية التالية.

[12] ر م + محمد.

[13] ر ث م – وهو القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن جعل قوله: **منفكّين،** منتهين زائلين يجعل البينةَ رسولَ الله[١] صلى الله عليه وسلم، سُمِّي بينةً لأنه به يعرف كل خير وكلُّ إحسان، وبه يتبيّن الحق من الباطل[٢] وكلُّ شيء من أمر المعاد والمعاش، وكذلك القرآن جاء به. ومن قال: **منفكّين،** خارجين من الدنيا يجعل البينةَ التي ذكر أنها تأتيهم العذابَ معاينةً جِهارا، كقوله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ،[٣] أي خارجين من الدنيا حتى يعلموا العذاب، فعند ذلك يؤمنون.

[٩١٧ظ س ٢٠ * قال أبو عَوْسَجَة: **منفكين،** أي لا يزالون على هذه الحال، يقول الرجل: ما انْفَكَكْتُ أفعلُ كذا وكذا، أي ما زلت[٤] أفعل كذا وكذا. وقال القُتَبِي وأبو عبيد[ة] وغيرهما: **منفكين،** زائلين.[٥]* ٩١٧ظ س ٢٢]

﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾[٢]

وقوله عز وجل: **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة،** على التأويل الأول في البينة يكون ما ذكر من قوله: **رسول من الله**[٧] تفسيرا للبينة. وعلى الثاني يخرّج على الابتداء، يقول: رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو صحفا مطهرة. ثم جائز أن يكون سمّى القرآنَ وحده صحفا على المبالغة؛ إذ قد يسمّى الواحد باسم الجميع[٨] على المبالغة. وجائز أن يكون قوله: **يتلو صحفا،** القرآنَ وسائرَ الصحف، لأن سائر الصحف فيه. وكذلك فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ،[٩] جائز أن يكون سُمّي كتابه المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبا على الإبلاغ والتأكيد على ما ذكرنا. وجائز أن يكون **يتلو صحفا،** وكُتُبًا عليهم وهي التوراة والإنجيل والزبور، كان هذا القرآن في تلك الكتب وتلك الكتب في هذا، وهو كقوله تعالى: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ،[١٠]

---

[١] ن + ورسول الله.
[٢] ر ث م: الحق والباطل.
[٣] سورة النساء، ١٥٩/٤.
[٤] ر م - ما زلت؛ ث - زلت.
[٥] ر م: زيلين. *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٤٥٦/٢؛ وتفسير *غريب القرآن* لابن قتيبة، ٥٣٤.
* وقع ما بين النجمتين أثناء تفسير الآية ٨ من هذه السورة متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٩١٧ظ/ سطر ٢٠-٢٢.
[٧] م + يتلو صحفا.
[٨] م: باسم الجمع.
[٩] الآية التالية.
[١٠] سورة الشعراء، ١٩٦/٢٦.

وقوله تعالى: إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ.[1] أخبر أنه في تلك الكتب وأن الكتب الأولى فيه، فيصير بتلاوة هذا عليهم كأنه تلا[2] تلك الكتب عليهم. وعلى هذا قوله تعالى: هٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي،[3] وقوله[4] تعالى: مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ،[5] وقوله عز وجل: مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ،[6] ففي هذا ما في تلك الكتب. وقال بعضهم: **صحفا مطهرة**، التي كانت في أيدي السفرة البررة.

وقوله تعالى: **مطهَرةً**، يحتمل **مطهَرة**،[7] من أن يكون للباطل فيه حجة أو مدخل، أو **مطهّرة** من الافتعال والافتراء، أو **مطهَرةً** من أن يحتمل ما ذكره أولئك الكفرة. وقال قتادة: سمّى كتابه بأحسن الأسماء وأثنىَ عليه بأحسن الثناء،[8] سمّاه نورا[9] وهدى ورحمة[10] وبركة[11] وأنه شفاء[12] ونحوَه.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٣]

وقوله تعالى: **قيمة**، اختلف فيه. قال بعضهم: **فيها كتب** صادقة، وقال بعضهم: عادلة، وقال[13] غيرهم: مستقيمة على ما يوجبه الحكمة. وجائز أن يكون قوله تعالى: **فيها كتب قيمة**، أي أحكام كثيرة مستقيمة على ما توجبه الشريعة والحكمة.

---

[1] سورة الأعلى، ١٨/٨٧-١٩.
[2] ن – تلا.
[3] سورة الأنبياء، ٢٤/٢١.
[4] ر م: قوله.
[5] انظر مثلا: سورة البقرة، ٩٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٣/٣.
[6] سورة البقرة، ٩١/٢.
[7] ث – يحتمل مطهرة.
[8] *تفسير الطبري*، ٢٣٣/٣٠.
[9] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فآمِنوا بالله ورسوله والنُّور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ (سورة التغابن، ٨/٦٤)، ونحو ذلك من الآيات.
[10] ﴿ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلْناه على عِلْمٍ هُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ (سورة الأعراف، ٥٢/٧)، ونحو ذلك من الآيات.
[11] ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ (سورة الأنعام، ١٥٥/٦)، ونحو ذلك من الآيات.
[12] ﴿وَنُنَزِل مِن القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ لِلمؤمنين ولا يَزيد الظالمين إلا خَسارا﴾ (سورة الإسراء، ٨٢/١٧)، ونحو ذلك من الآيات.
[13] ر م: قال.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[٤]

وقوله تعالى: **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**، يقول أهل التأويل: إنما تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينة، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. قال أبو بكر [الأصم]: هذا التأويل خطأ، لأنهم كانوا متفرقين قبل ذلك، فلا معنى لهذا.[١] وعندنا ليس كما توهم هو، وهو يخرج على وجهين. أحدهما، وما تفرقوا في محمد صلى الله عليه وسلم إلا من بعد ما جاءهم العلم به، عند ذلك تفرقوا فيه، فأما قبل ذلك كانوا مجتمعين فيه[٢] كلُّهم. أو ما تفرقوا[٣] في الدين والمذهب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، أي عن بيان وعلم تفرقوا في الدين. وفيما تفرقوا فيه[٤] وهو / ما جُعل في خلقة[٥] كلِّ أحد دلالةُ التوحيد والربوبية له [٩١٧و] ما لو تفكّروا لعرفوا بأن الله تعالى واحد. والبينة يحتمل من هذا الموضع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والقرآنَ ونفسَ الخلقة على ما ذكرنا.

*وفي قوله: **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**، وجهان. [٩١٧و س٢٠ أحدهما تحذير لهذه الأمة لِأن لا يتفرقوا كما تفرق أولئك في رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦] وفيما جاء به. والثاني يكونون أبدا فزعين إلى الله تعالى في كل وقت خائفين منه وأن لا يَكِلُوا إلى البيان الذي جاءهم، فيتفرقوا كما تفرق أولئك.* ٩١٧و س٢٣]

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٥]

وقوله تعالى: **وما أمروا إلا ليعبد الله مخلصين له الدين**، أي ما أُمِر أوائلهم وأواخرهم في تلك الكتب إلا ليعبدوا الله تعالى ولا يعبدوا من دونه. أو ما أمروا إلا ليجعلوا الألوهية[٨] لله والوحدانية له.

---

[١] ر م: لذلك؛ ث: كذلك.
[٢] ر ث م: مجتمعين به فيه.
[٣] ر ث م + فيه.
[٤] ن – وفيما تفرقوا فيه.
[٥] ث: في خلقه.
[٦] ن – صلى الله عليه وسلم.
[٧] وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٩١٧و /سطر ٢٠-٢٣.
[٨] م: ألوهية.

ودل قوله: **وما أمروا إلا ليعبدوا الله**، على أن تأويل قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[1] على إضمار الأمر، أي إلا ليأمرهم بالعبادة على كل حال، لأنه لو خلقهم للعبادة ما قدروا غيرها.[2] أو أن يكون قوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، على الخصوص، خَلَق مَنْ عَلِم أنّه يعبده للعبادة.

وقوله عز وجل: **مخلصين له الدين**، إخلاص الدين له يخرج على وجهين. أحدهما أن يُخلِص[3] له الدين ويُصفِّي لا يشرك فيه غيرَه، ويكون من خلوص وصفاء.[4] والثاني الدين الخالص هو الدائم، كقوله: وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا،[5] أي دائما.[6] وكذلك يحتمل قوله: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.[7]

وقوله عز وجل: **حنفاء**، قال أهل التأويل: [هم] المسلمون، وقال بعضهم: **حنفاء**، متبعين. والحَنَف[8] الميل، كأنه قال: مائلين إلى الإسلام. وقيل: **حنفاء**، الحُجّاج، وقيل: الحنيف[9] المستقيم.

وقوله عز وجل: **ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**، يحتمل القبول، أي قَبِلوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، كقوله: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ،[10] أي تابوا وقبلوا ذلك، ليس على حقيقة الإقامة. ويحتمل[11] حقيقةَ الإقامة والإيتاء. وأيهما كان ففيه أن أوائلهم كانوا مأمورين بالصلاة والزكاة. ثم المعنى الذي في الصلاة والزكاة لا يحتمل النسخ في وقت من الأوقات، لأن الصلاة معناها هو الاستسلام والخضوع له، والزكاة هي تزكية النفس وطهارتها، وذلك لا يحتمل النسخ أصلا.

---

[1] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.
[2] جميع النسخ: غيره. والتصحيح من الشرح، ورقة ٣٥٥و.
[3] ر: أن يخلق.
[4] جميع النسخ: وصفائه. والتصحيح من المرجع السابق.
[5] سورة النحل، ٥٢/١٦.
[6] ر م – أي دائما.
[7] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[8] ن: والحنيف.
[9] ر م: الحنف.
[10] ر ث م – كقوله فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. سورة التوبة، ٥/٩، ١١.
[11] ر ث م + أن يكون.

ثم قال:[١] **وذلك دين القيمة**، والدين مذكر والقيِّمة مؤنث. فجائز أن يكون الذي ذَكَر هو الملة[٢] القيمةَ، ويحتمل دينَ الأمة القيّمة، وهو قول الزجاج.[٣] أو يكون[٤] ذلك الدينَ الذي[٥] قوّمته الحجج والبراهين، أضيف إلى الحجج. وجائز أن يكون ذكر القيمة على التسوية بين ما سبق وما تقدم من أواخر الآي من قوله عز وجل: حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ،[٦] ومُطَهَّرَةً،[٧] وكُتُبٌ قَيِّمَةٌ،[٨] ثم قال على ذلك: **وذلك دين القيمة**،[٩] تسوية بين ما تقدم وما تأخر من قوله: خَيْرُ الْبَرِيَّةِ،[١٠] وشَرُّ الْبَرِيَّةِ.[١١] وفي حرف أبيّ: ذلك الدين القيم، بغير هاء.*

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [٦]

وقوله عز وجل: **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم**، ظاهر هذا أن يكون تأويلَ قوله: **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**، أي بعضُ المشركين[١٣] في النار لا كلّ المشركين، ولكن من كفر من المشركين كان كمن كفر من أهل الكتاب في نار جهنم، لكن الكفر هو الشرك والشركَ هو الكفر، كقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ،[١٤] فدلّ أن الكفر والشرك واحد، وكل كافر مشرك، فكأنه قال عز وجل: إن الذين أشركوا من أهل الكتاب[١٥] والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية.

---

[١] ر م: لا يحتمل النسخ وقال؛ ث – وذلك لا يحتمل النسخ أصلا ثم قال.
[٢] ث: هي الملة.
[٣] *معاني القرآن وإعرابه* للزجاج، ٥/٣٥٠.
[٤] ر ن م: أو أن يقول.
[٥] ر م – الذي.
[٦] الآية ١ من هذه السورة.
[٧] الآية ٢ من هذه السورة.
[٨] الآية ٣ من هذه السورة.
[٩] ر م – ثم قال على ذلك وذلك دين القيمة.
[١٠] الآية ٧ من هذه السورة.
[١١] الآية التالية.
* وقع هنا قطعة من تفسير الآية السابقة، فنقلناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٩١٧و/ سطر ٢٠-٢٣.
[١٣] ث + أي بعض المشركين.
[١٤] سورة النساء، ٤/٤٨.
[١٥] ن + من أهل الكتاب.

ثم جاء كلّ هذا التشديد لهؤلاء لأن أهل الكتاب ادّعَوا أنهم من نسل الأنبياء ثم تركوا اتباعهم؛ والمشركون قد[1] أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ،[2] ثم نقضوا ذلك العهد. وأهل الكتاب[3] قالوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ،[4] فتركوا اتباع الصالحين من آبائهم. والعرب أيضا كانوا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيرهم فحقّه عليهم ألزم وأوجب، فشدّد على هؤلاء لهذا المعنى.

ثم إن كان **البريّة**، مأخوذا مقدّرا من الْبَرَى -وهو التراب- فيرجع[5] تأويل الآية إلى البشر كأنه قال: أولئك هم شرّ ما أُنشئوا من الأرض؛ وإن كان مأخوذا مقدرا من البَرْء -وهو الخلق- فيصير كأنه قال:[6] أولئك هم شر ما خُلقوا، فيدخل[7] في ذلك الملائكة والجن والبشر، وفي الأول لا يدخل إلا البشر خاصة. وكذلك ما ذكر من أهل الإيمان حيث قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[٧]

إن الذين آمنوا وعمل الصالحات أولئك هم الخير البرية، فإن كان البرية مأخوذا من البَرْء فهو يرجع إلى الأصناف جميعا، وإن كان من البَرَى -وهو التراب- فهو يرجع إلى البشر خاصة، فيصير كأنه قال: شر أهل البشر من جنسهم، وخير أهل الخير من جنسهم، لأنهم صاروا قادة في الهدى والخير.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٨]

وقوله عز وجل: **جزاؤهم عند ربهم جنات عدن**، فإن كان العدن هو المُقام فجميع الجنان عدن وجميع الجنان نعيم. ثم قد قَسَم الخلق صنفين: صنفا[8] جعله شرّ البرية، وصنفا[9] جعله / خير البرية. [٩١٧ظ]

---

[1] ن + أشركوا و.
[2] سورة فاطر، ٤٢/٣٥.
[3] ث + وأهل الكتاب.
[4] سورة الزخرف، ٢٣/٤٣.
[5] جميع النسخ: ويرجع. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٥٥ظ.
[6] ن – قال.
[7] ن: فدخل.
[8] ر م – صنفا.
[9] ر م – وصنفا.

ثم يكون من كل صنف شر من شر وخير من خير. وسوّى بين مَن نشأ على الكفر وداوم عليه في التأبيد والتخليد وبين من أحدث الكفر في آخر عمره،[١] وكذلك من دام على الإيمان ومن أحدث: سوى بينهما ولم يجعل لما مضى من الكفر والإيمان[٢] جزاءً ولا عقابًا، وذلك -والله أعلم- هو أن من اعتقد إيمانا إنما يعتقده[٣] للأبد، وكذلك من يعتقد الكفر إنما يعتقده[٤] لِلأبد. فإذا أحدث الإيمان بعد الكفر اعتقد قبحَ ما عمل في حال كفره وشرِّه، وحُسنَ ما أحدث من الإيمان والتوحيد، وكذلك[٥] من أحدث الكفر بعد الإيمان اعتقد فساد ما عمل في حال إيمانه. لذلك سوّى[٦] بين مَن أحدث وبين من دام عليه، وليس [هذا] لمن[٧] يُذنب في وقت ويتوب في وقت، لأنه ليس[٨] يعتقد حسنَ ذلك ولا قبحَه في الأبد. *والله الموفق*.

وقوله عز وجل: **رضي الله عنهم ورضوا عنه**، يحتمل وجهين.[٩] أحدهما يقول: رضي الله بعملهم الذي عملوا لأنفسهم وسعيهم الذي سعوا في الدنيا عنهم. **رضي**[١٠] بسعيهم له.[١١] **ورضوا عنه**، أي رضوا هم عنه بما أكرمهم ووفّقهم للأعمال[١٢] التي عملوا لأنفسهم في الدنيا، وهو كقوله تعالى: وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ،[١٣] أي إن قبلوا ما أحسن[١٤] إليهم وأحسَنوا صحبة إحسانه إليهم يرضَ[١٥] ذلك لهم.[١٦] وهذا يدلّ أن ما يعملون من خير أو شر

---

[١] ن: الكفر إلى آخره.
[٢] ر ث م – والإيمان.
[٣] جميع النسخ: إنما يعتقد. والتصحيح من *الشرح*، ٣٥٥ظ.
[٤] ر ث م: إنما يعتقد.
[٥] ن ث: ولذلك.
[٦] ر م – سوى.
[٧] ر ث م: كمن.
[٨] ر ث م – ليس.
[٩] ر ث م – يحتمل وجهين.
[١٠] ر م + الله.
[١١] جميع النسخ: لهم.
[١٢] جميع النسخ: الأعمال. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٥٦و.
[١٣] سورة الزمر، ٣٩/٧.
[١٤] ن: لما أحسن.
[١٥] جميع النسخ: يرضى.
[١٦] ر ث م + وقال.

إنما يعملون لأنفسهم ولمنفعة ترجع[1] إليهم أو مضرة تندفع[2] عنهم. والثاني **رضي الله عنهم**، بما أكرمهم من الثواب لأعمالهم التي عملوا لأنفسهم، **ورضوا عنه**، بكرامته التي أكرمهم.

وقوله عز وجل: **رضي الله عنهم**، هذا منه إفضال وإنعام حيث ذكر رضاه عنهم. وإن ذكر العفو والتجاوز كان حقا.[3] ولكن هذا كما ذكر من لطيف معاملته عبادَه،[4] حيث سمى ما ادخروا في وقت حاجتهم إليه قرضا، حيث قال: وَأَقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا،[5] وسمى بذلهم أنفسهم وأموالهم شراءً، وما يعملون لأنفسهم جزاء وشكرا،[6] وأموالُهم[7] وأنفسهم في الحقيقة له، ولكن سمى بالذي ذكرنا لطفا منه وفضلا. فعلى ذلك[8] ما ذكر من رضاه عنهم به. وكذلك قوله: **ورضوا عنه**، ذكر رضاهم عنه بفضله[9] ولطفه وإلّا مَنْ هُمْ[10] حتى يَذكرَ منهم[11] الرضا عن الله تعالى.

ثم هو يخرج على وجهين سوى ما ذكرنا. أحدهما **ورضوا عنه**، بما امتحنهم في الدنيا بالمحن الشديدة العظيمة وإن اشتدت ذلك وثقلت على أنفسهم إذا رأوا إحسانَ الله تعالى وفضلَه في الآخرة. والثاني **رضوا عنه**، بالنعم التي أكرمهم في الجنة، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا،[12] ولا يريدون غيرها، ولا يَمَلّون على ما يَمَلّون[13] في الدنيا.*

---

[1] جميع النسخ: يرجع. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٥٦و.

[2] جميع النسخ: يندفع. والتصحيح من المرجع السابق.

[3] أي ولو ذكر العفو والتجاوز لكان حقا.

[4] ن: عبادة.

[5] سورة المزمل، ٢٠/٧٣.

[6] ن + وسمى بذلهم أنفسهم وأموالهم شرا وما يعملون لأنفسهم جزاء ولا شكورا. لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (سورة التوبة، ١١١/٩).

[7] ث - شرا وما يعملون لأنفسهم جزاء وشكرا وأموالهم.

[8] ن - ذلك.

[9] ن: رضاهم بفضله.

[10] ر م: والآمنهم؛ ث: والآمن هم.

[11] ث - منهم.

[12] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا﴾ (سورة الكهف، ١٨/١٠٧-١٠٨).

[13] م - على ما يملون.

* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية ١ متأخرة عن موضعها، فنقلناها إلى هنالك. انظر: ورقة ٩١٨ظ / سطر ٢٠-٢١.

وقوله عز وجل: **ذلك لمن خشي ربه**، أي الذي[1] ذكر من الجزاء لمن خشي نقمته، أو خشي سوء صحبة نعمه.[2] وأصله أن من اجتنب المعاصي وعمل بالطاعات فإنما يفعل ذلك لخشية ربه سبحانه وتعالى؛ فذُكر:[3] "من أَعْلَمُ بربه فهو أخشى لربه تعالى، ومن أجهل به فهو أجرأ". قال الله تعالى:[4] إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.[5] وقال الحسن: الخشية هي الخوف[6] اللازم في القلب الدائم فيه. أو خشي خلافَه وكفرانَ نعمه. ***والله أعلم بالصواب.***[7]

---

[1] ر م: الذكرى.

[2] ث: نعمته.

[3] جميع النسخ: فكل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٥٦و.

[4] ث: قال الله سبحانه وتعالى.

[5] سورة فاطر، ٢٨/٣٥.

[6] ر م: هو الخوف.

[7] ر م – والله أعلم بالصواب؛ ث: والله أعلم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة البينة

وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظمًا وتفسيرًا، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء. ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول: وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة (حتى) لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن. **والجواب عنه من وجوه: أولها**: وأحسنها الوجه الذي لخصه صاحب الكشاف، وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد عليه السلام، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى. فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقًا فيقول واعظه: لم تكن منفكًا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار بُذكره ما كان يقوله توبيخًا وإلزامًا، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد، وهو أن قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ مذكورة حكاية

عنهم. وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو إخبار عن الواقع، والمعنى أن الذي وقع كان على خلاف ما ادعوا. **وثانيها:**أن تقدير الآية. لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة. وعلى هذا التقدير يزول الإشكال، هكذا ذكره القاضي إلا أن تفسير لفظة (حتى) بهذا ليس من اللغة في شيء. **وثالثها:**أنا لا نحمل قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل، والمعنى: لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة. قال ابن عرفة: أي حتى أتتهم، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]أي ما تلت، والمعنى أنهم ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه، وقال كل واحد فيه قولاً آخر رديًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]والقول المختار في هذه الآية هو الأول. وفي الآية وجه رابع: وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول، وكلمة (حتى) تقتضي أن يكون الحال بعد ذلك بخلاف ما كان قبل ذلك، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا، فمنهم من صار مؤمنًا، ومنهم من صار كافرًا، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبل مجيئه، كفى ذلك في العمل بمدلول لفظ (حتى). **وفيها وجه خامس:**وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد في كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول، بل بقوا شاكّين متحيرين في ذلك الدين وفي سائر الأديان، ونظيره قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]والمعنى أن الدين الذي كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم، فاليهودي كان جازمًا في يهوديته، وكذا النصراني وعابد الوثن، فلما بُعث محمد عليه الصلاة والسلام اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقالته، وقوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُشعر بهذا لأن انفكاك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه، فمعناه أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة.

المسألة الثانية: الكفار كانوا جنسين: **أحدهما:**أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى، وكانوا كفارًا بإحداثهم في دينهم ما كفروا به، كقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]و: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]وتحريفهم كتاب الله ودينه. **والثاني:**المشركون الذين كانوا لا يُنسبون إلى كتاب، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل، وهو قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، **وههنا سؤالان:**

السؤال الأول:تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين، فهذا يقتضي أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر، وهذا حق، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس

بكافر، ومعلوم أن هذا ليس بحق. **والجواب من وجوه: أحدها:** كلمة (مِن) ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] **وثانيها:** أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين، فإدخال كلمة (مِن) لهذا السبب. **وثالثها:** أن يكون قوله: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أيضًا وصفًا لأهل الكتاب، وذلك لأن النصارى مُثلِّثة واليهود عامتهم مُشبِّهة، وهذا كله شرك، وقد يقول القائل: (جاءني العقلاء والظرفاء) يريد بذلك قومًا بأعيانهم يصفهم بالأمرين. وقال تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] وهذا وصف لطائفة واحدة، وفي القرآن من هذا الباب كثير، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفًا لموصوف واحد.

السؤال الثاني: المجوس هل يدخلون في أهل الكتاب؟ **قلنا:** ذكر بعض العلماء أنهم داخلون في أهل الكتاب لقوله عليه السلام: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» وأنكره الآخرون قالوا: لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان في بلاد العرب، وهم اليهود والنصارى، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦] والطائفتان هم اليهود والنصارى.

السؤال الثالث: ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين؟ حيث قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؟ **الجواب:** أن الواو لا تفيد الترتيب، ومع هذا ففيه فوائد: **أحدها:** أن السورة مدنية فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر. **وثانيها:** أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم، فكان إصرارهم على الكفر أقبح. **وثالثها:** أنهم لكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم، فكان كفرهم أصلاً لكفر غيرهم؛ فلهذا قُدموا في الذكر. **ورابعها:** أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقُدموا في الذكر.

السؤال الرابع: لِمَ قال: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولم يقل: من اليهود والنصارى؟ **الجواب:** لأن قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدل على كونهم علماء، وذلك يقتضي إما مزيد تعظيم، فلا جرم ذُكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى، أو لأن كونه عالمًا يقتضي مزيد قبح في كفره، فذُكروا بهذا الوصف تنبيهًا على تلك الزيادة من العقاب.

المسألة الثالثة: هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع: **أحدها:** أنه تعالى فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين، فهذا يقتضي كون الكل واحدًا في الكفر، فمن ذلك قال العلماء: الكفر كله ملة واحدة، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس. **والثاني:** أن العطف أوجب المغايرة، فلذلك نقول: الذمي ليس بمشرك، وقال عليه السلام: «غَيْرَ نَاكِحِي نِسَائِهِمْ وَلاَ آكِلِي ذَبَائِحِهِمْ» فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك. **الثالث:** نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم إذ قد حدث في أهل القرآن مثل ما حدث في الأمم الماضية.

المسألة الرابعة: قال القفال: الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء، وأصله من الفك وهو

الفتح والزوال، ومنه فككت الكتاب، إذا أزلت ختمه ففتحته، ومنه فكاك الرهن، وهو زوال الانغلاق الذي كان عليه، ألا ترى أن ضد قوله: انفك الرهن، ومنه فكاك الأسير وفكه، فثبت أن انفكاك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثًا قويًا لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة، أما البينة فهي الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق من الباطل، فهي من البيان أو البينونة لأنها تبين الحق من الباطل.

وفي المراد من البينة في هذه الآية أقوال:

الأول: أنها هي الرسول، ثم ذكروا في أنه لِمَ سمي الرسول بالبينة وجوهًا: **الأول:** أن ذاته كانت بينة على نبوته، وذلك لأنه عليه السلام كان في نهاية الجد في تقرير النبوة والرسالة، ومن كان كذابًا متصنعًا فإنه لا يتأتى منه ذلك الجد المتناهي، فلم يبق إلا أن يكون صادقًا أو معتوهًا والثاني معلوم البطلان لأنه كان في غاية كمال العقل، فلم يبق إلا أنه كان صادقًا. **الثاني:** أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغًا إلى حد كمال الإعجاز، والجاحظ قرر هذا المعنى، والغزالي رحمه الله نصره في كتاب المنقذ، فإذًا لهذين الوجهين سمي هو في نفسه بأنه بينة. **الثالث:** أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت في غاية الظهور، وكانت أيضًا في غاية الكثرة، فلاجتماع هذين الأمرين جُعل كأنه عليه السلام في نفسه بينة وحجة، ولذلك سماه الله تعالى سراجًا منيرًا. واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فهو رفع على البدل من البينة، وقرأ عبد الله: (رسولاً) حال من البينة قالوا: والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ للتعريف، أي هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى، أو يقال: إنها للتفخيم أي هو ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي لا مزيد عليها، أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا في حق الرسول عليه السلام، فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم ثنى بالتنكير فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هو رسول وأي رسول، ونظيره ما ذكره الله تعالى في الثناء على نفسه فقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] ثم قال: ﴿فَعَّالٌ﴾ [البروج: ١٦] فنكَّر بعد التعريف.

القول الثاني: أن المراد من البينة مطلق الرسل، وهو قول أبي مسلم، قال: المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلو عليهم صحفًا مطهرة. وهو كقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: ١٥٣] وكقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

القول الثالث: -وهو قول قتادة وابن زيد-: البينة هي القرآن. ونظيره قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] ثم قوله بعد ذلك: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لا بد فيه من مضاف محذوف والتقدير: وتلك البينة وحي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

أما قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهي ظرف للمكتوب،

وفي المطهرة وجوه: **أحدها:** مطهرة عن الباطل، وهي كقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: ٤٢] وقوله: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾[عبس: ١٤] ،**وثانيها:** مطهرة عن الذكر القبيح فإن القرآن يُذكر بأحسن الذكر ويُثنى عليه أحسن الثناء. **وثالثها:** أن يقال: مطهرة أي ينبغي أن لا يمسها إلا المطهرون، كقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٨، ٧٩] . واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتًا للصحف في الظاهر فهي نعت لما في الصحف وهو القرآن.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه قولان: **أحدهما:** المراد من الكتب: الآيات المكتوبة في الصحف. **والثاني:** قال صاحب النظم: الكتب قد يكون بمعنى الحكم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾[المجادلة: ٢١] ومنه حديث العسيف: «**لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ**» أي بحكم الله، فيحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي أحكام قيمة. **أما القيمة ففيها قولان: الأول:** قال الزجاج: مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل، من قام يقوم كالسيد والميت، وهو كقولهم: (قام الدليل على كذا) إذا ظهر واستقام. **الثاني:** أن تكون القيمة بمعنى القائمة، أي هي قائمة مستقلة بالحجة والدلالة، من قولهم: قام فلان بالأمر يقوم به، إذا أجراه على وجهه، ومنه يقال للقائم بأمر القوم: (القيم) **فإن قيل:** كيف نُسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أميًّا؟ **قلنا:** إذا تلا مثلاً المسطور في تلك الصحف كان تاليًا ما فيها، وقد جاء في كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام: كان يقرأ من الكتاب وإن كان لا يكتب، ولعل هذا كان من معجزاته ﷺ .

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ، **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في هذه الآية سؤال، وهو أنه تعالى ذكر في أول السورة أهل الكتاب والمشركين، وههنا ذكر أهل الكتاب فقط، فما السبب فيه؟ **وجوابه من وجوه: أحدها:** أن المشركين لم يُقَروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل، بخلاف أهل الكتاب الذين يُقَرون على كفرهم ببذل الجزية. **وثانيها:** أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد ﷺ بسبب أنهم وجدوها في كتبهم، فإذا وُصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

المسألة الثانية: قال الجبائي: هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا: إن الناس تفرقوا في الشقاوة والسعادة في أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة. **والجواب:** أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل في الأزل، أما ظهوره من المكلف فإنما وقع بعد الحالة المخصوصة.

المسألة الثالثة: قالوا: هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ، ثم قال: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أن الله وملائكته آتاهم ذلك. فالخير والتوفيق مضاف إلى الله، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم.

المسألة الرابعة: المقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ أي لا يغمنك تفرقهم، فليس ذلك

لقصور في الحجة بل لعنادهم، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل إلا من بعد ما جاءتهم البينة، فهي عادة قديمة لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: (وما أُمروا) وجهان: **أحدهما:** أن يكون المراد: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه بقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعًا في حقهم فهو مشروع في حقنا. **وثانيها:** أن يكون المراد: وما أُمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء. وهذا أَوْلى لثلاثة أوجه: **أحدها:** أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعًا جديدًا وحَمْل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أَوْلى **وثانيها:** وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم. **وثالثها:** أنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ فحكم بكون ما هو متعلق هذه الآية دينًا قيمًا، فوجب أن يكون شرعًا في حقنا، سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بيانًا لشرع محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا قول مقاتل.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ دقيقة وهي أن هذه اللام لام الغرض، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلاً لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض، فلو فعل الله فعلاً لكان ناقصًا لذاته مستكملاً بالغير وهو محال؛ لأن ذلك الغرض إن كان قديمًا لزم من قدمه قدم الفعل، وإن كان محدثًا افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال، ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة فهو عاجز، وإن كان قادرًا عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثًا، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل. ثم قال الفراء: العرب تجعل اللام في موضع (أنْ) في الأمر والإرادة كثيرًا، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾ [الصف: ٨] وقال في الأمر: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١] وهي في قراءة عبد الله: (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله) فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين. والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منويًا، ثم قالت الشافعية: الوضوء مأمور به في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منويًا، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منويًا. وأما المعتزلة فإنهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض، لا جرم

أجروا الآية على ظاهرها فقالوا: معنى الآية: وما أُمروا بشيء إلا لأجل أن يعبدوا الله. والاستدلال على هذا القول أيضًا قوى؛ لأن التقدير: وما أُمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين في ذلك الشيء. وهذا أيضًا يقتضي اعتبار النية في جميع المأمورات. **فإن قيل:** النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه؛ لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه. قلنا: هب أنه خص عموم الآية في هذه الصورة بحكم الدليل العقلي الذي ذكرتم فيبقى في الباقي حجة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] قالوا: فيه وجوه: **أحدها:** كأنه تعالى يقول: العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وذكر في الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملاً يقول له أولاً: ينبغي أن تفعل هذا. ولا يأمره صريحًا، لأنه ربما يَردّ عليه فتعظم جنايته، فهمنا أيضًا لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد. **وثانيها:** أنا على القول بالحسن والقبح العقليين نقول: كأنه تعالى يقول: لست أنا الآمر للعبادة فقط، بل عقلك أيضًا يأمرك لأن النهاية في التعظيم لمن أوصل إليك (أن) نهاية الإنعام واجبة في العقول.

المسألة الرابعة: اللام في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبد وهو رب، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب ألبتة، ثم أمرك بالعبادة وجبت لمحض العبودية. وفيها أيضًا إشارة إلى أنه مَن عبد الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، ونعِم ما قيل: مَن آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول.

المسألة الخامسة: العبادة هي التذلل، ومنه طريق معبد أي مذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام، وما أطاعوهم، ولكن في الشرع صارت اسمًا لكل طاعة لله، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم، واعلم أن العبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحدًا في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية، فإن كان مثل لم يجز أن يصرف إليه النهاية في التعظيم، ثم نقول: لا بد في كون الفعل عبادة من شيئين: **أحدهما:** غاية التعظيم، ولذلك قلنا: إن صلاة الصبي ليست بعبادة؛ لأنه لا يعرف عظمة الله، فلا يكون فعله في غاية التعظيم. **والثاني:** أن يكون مأمورًا به، ففعل اليهودي ليس بعبادة، وإن تضمن نهاية التعظيم؛ لأنه غير مأمور به، والنكتة الوعظية فيه أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم، وفعل اليهودي ليس بعبادة لفقد الأمر، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم؟

المسألة السادسة: الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصًا لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، والنكت الوعظية فيه من وجوه: **أحدها**: كأنه تعالى يقول: عبدي لا تسع في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأني ما بذلت كل مقدوري لك حتى أطلب منك كل مقدورك، بل بذلت لك البعض، فأطلب منك البعض نصفًا من العشرين، وشاة من الأربعين، لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك، فلا ترد بطاعتك سواي، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك، فمن ذلك المباح الذي يوجد منك في الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص، وأما الالتفات المكروه فذا حظ الشيطان. **وثانيها**: كأنه تعالى قال: يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه، وأنا حكيم لا أفعل ذلك ألبتة، فإذًا لا تريد إلا ما أريد، ولا أريد إلا ما تريد، ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن، فكأنه تعالى بفضله قال: الملك لا يخدم الملك لكن (لكي) نصطلح أجعل جميع ما أفعله لأجلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] فاجعل أنت أيضًا جميع ما تفعله لأجلي: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

واعلم أن قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ نصب على الحال، فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، فيأتي بالفعل لوجهه مخلصًا لربه، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضًا آخر، بل قالوا: لا يجعل طلب الجنة مقصودًا ولا النجاة عن النار مطلوبًا، وإن كان لا بد من ذلك، وفي التوراة: ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غير وجهي فكثيره قليل. وقالوا: من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير، مثل الواجب من الأضحية شاة، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك، وإن زدت في الخشوع لأن الناس يرونه لم يجز، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة أخرى، فكيف ولو خلطت بها محظورًا مثل أن تتقدم على إمامك، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص؟

وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ قال بعضهم: مقرين له بالعبادة. وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة. وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره. ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

أما قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، **ففيه أقوال**:

الأول: قال مجاهد: متبعين دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وهذا التفسير فيه لطيفة، كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستولٍ على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية، ولم يستجز التعويل على

التقليد أيضًا بالكلية، فلا جرم ذكر قومًا أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم، وهو إبراهيم ومن معه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤] فكأنه تعالى قال: إن كنت تقلد أحدًا في دينك، فكن مقلدًا إبراهيم، حيث تبرأ من الأصنام، وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلَّمها إلى النيران، ومن ما له حين بذله للضيفان، ومن ولده حين بذله للقربان، بل روي أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه، ولم ير شخصًا فاستعاده، فقال: أما بغير أجر فلا، فبذل كل ما ملكه فظهر له جبريل عليه السلام، وقال: حُق لك حيث سماك خليلاً فخذ مالك، فإن القائل كنت أنا. بل انقطَع إلى الله حتى عن جبريل حين قال: (أما إليك فلا) فالحق سبحانه كأنه يقول: إن كنت عابدًا فاعبد كعبادته، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم، فاجتهد في متابعة ولده الصبي، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره، فمد عنقه لحكم الرؤيا، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل، وهو أم الذبيح، كيف تجرعت تلك الغصة، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنتين يقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة والإرث، والرقيقة نصف الحرة، بدليل أن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل، ثم انظر كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة في أولادها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة في جبال مكة بلا ماء ولا زاد، وانصرف، لا يكلمها ولا يعطف عليها، قالت: آلله أمرك بهذا؟ فأومأ برأسه نعم، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق.

والقول الثاني: المراد من قوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مستقيمين، والحنف هو الاستقامة، وإنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل، كقولنا للأعمى (بصير) وللمهلكة (مفازة)، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

والقول الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: حجاجًا، وذلك لأنه ذكر العبادة أولاً ثم قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ وإنما قدم الحج على الصلاة لأن في الحج صلاة وإنفاق مال. **الرابع:** قال أبو قلابة: الحنيف الذي آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحدًا منهم، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفًا؟! **الخامس:** حنفاء أي جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين، قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ»[1]. **السادس:** قال قتادة: هي الختان وتحريم نكاح المحارم، أي مختونين محرمين لنكاح الأم والمحارم، فقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ إشارة إلى النفي، ثم أردفه بالإثبات وهو قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **السابع:** قال أبو مسلم: أصله من الحنف في الرِّجل، وهو إدبار

(١) أحمد في (مسنده) (٥/ ٢٦٦) حديث رقم (٢٢٦٤٧)، والطبراني في (الكبير) (١/ ٢١٦) حديث رقم (٧٨٦٨) كلاهما من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة. . . به، وقال الهيثمي (٥/ ٢٧٩): فيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف، ورواه الروياني في (مسنده) (٣/ ٤٦١) حديث رقم (١٢٦٦) من طريق عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة. . . به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٩٢٤).

إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهام الأخرى، فيكون الحنيف هو الذي يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام. **الثامن:** قال الربيع بن أنس: الحنيف الذي يستقبل القبلة بصلاته، وإنما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا. وأما الكلام في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مرارًا كثيرة.

ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال المبرد والزجاج: ذلك دين الملة القيمة، فالقيِّمة نعت لموصوف محذوف، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة، وقد ذكرنا هذين القولين في قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وقال الفراء: هذا من إضافة النعت إلى المنعوت، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥] والهاء للمبالغة كما في قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

المسألة الثانية: في هذه الآية لطائف: **إحداها:** أن الكمال في كل شيء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معًا، فقوم أطنبوا في الأعمال من غير إحكام الأصول، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات، ولكنهم ما حصّلوا الدين الحق، وقوم حصّلوا الأصول وأهملوا الفروع، وهم المرجئة الذين قالوا: (لا يضر الذنب مع الإيمان) والله تعالى خطّأ الفريقين في هذه الآية، وبيّن أنه لا بد من العلم والإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ومن العمل في قوله: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المجموع كله هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي البينة المستقيمة المعتدلة، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد، كذا هذا المجموع دين واحد، فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه، فكأنه سبحانه يقول: القائم بتحصيل مصالحك عاجلاً وآجلاً هو هذا المجموع، ونظيره قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[الأنعام: ١٦١] وقوله في القرآن: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾[الكهف: ٢] لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق، ويؤيده قوله عليه السلام: «مَنْ كَانَ فِي عَمَلِ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ فِي عَمَلِهِ» وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: (يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَكِ فَاسْتَخْدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَنِي فَاخْدِمِيهِ)، **وثانيها:** أن المحسنين في أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبيده والملائكة، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح لخالقهم فالإحسان من الله لا من الملائكة، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهيًا بهم: ملائكتي هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا، بل في بعض الأفعال أمثالي أحسنوا وتصدقوا، ثم إني أكرمكم يا ملائكتي بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظموني بمجرد ما فعلت من الإحسان، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين؛ أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين، فتتعجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة، فلهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] أفلا يكون هذا الدين قيمًا؟! **وثالثها**: أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلا قدرة كالزمن العاجز، والقادرة بلا علم مجنونة، فإذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة، فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة، فإذا اجتمعتا سُمي الدين قيمة. **ورابعها**: وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء، وهو القول والاعتقاد فقال: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ ثم لما أجابوه زاده، فسألهم الصلاة التي بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال: (لاَ زَكَاةَ فِي مَالٍ يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ) ثم لما ذكر الكل قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

المسألة الثالثة: احتج من قال: الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية، فقال: مجموع القول والفعل والعمل هو الدين، والدين هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان فإذًا مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان؛ لأنه تعالى ذكر في هذه الآية مجموع الثلاثة، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا: إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وإنما قلنا: إن الإسلام هو الإيمان لوجهين: الأول: أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولاً عند الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] لكن الإيمان بالإجماع مقبول عند الله، فهو إذًا عين الإسلام. **والثاني**: قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] فاستثناء المسلم من المؤمن يدل على أن الإسلام يصدق عليه، وإذا ثبتت هذه المقدمات، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة -أعني القول والفعل والعمل- هو الإيمان. وحينئذٍ يبطل قول من قال: الإيمان اسم لمجرد المعرفة، أو لمجرد الإقرار أو لهما معًا. والجواب: لمَ لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى الإخلاص فقط؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لا نحتاج إلى الإضمار أولى، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار، فتقولون: المراد وذلك المذكور، ولا شك أن عدم الإضمار أولى، سَلَّمنا أن قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم، فلمَ قلتم: إن ذلك المجموع هو الدين، وذلك لأن الدين غير، والدين القيم، فالدين هو الدين الكامل المستقل بنفسه، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلاً، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضًا، وهي الصلاة والزكاة، وإذا لم يوجد هذا المجموع، لم يكن الدين القيم حاصلاً، لكن لمَ قلتم: إن أصل الدين لا يكون حاصلاً والنزاع ما وقع إلا فيه؟ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولاً في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] ثم ذكر ثانيًا حال المؤمنين في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥] أعاد في آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين، فبدأ أيضًا بحال الكفار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين: **أحدهما:** الخلود في نار جهنم. **والثاني:** أنهم شر الخلق، **وههنا سؤالات:**

السؤال الأول: لمَ قدم أهل الكتاب على المشركين في الذكر؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال: «**اللَّهُمَّ امْلأْ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**» فكأنه عليه السلام قال: كانت الضربة ثم على وجه الصورة، وفي يوم الخندق على وجه السيرة التي هي الصلاة، ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال: كما قدمتَ حقي على حقك فأنا أيضًا أقدم حقك على حق نفسي، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شعرة من شعراتك يكفر. إذا عرفت ذلك فنقول: أهل الكتاب ما كانوا يطعنون في الله بل في الرسول، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون في الله، فلما أراد الله تعالى في هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولاً في النكاية بذكر من طعن في محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب، ثم ثانيا بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون. **وثانيها:** أن جناية أهل الكتاب في حق الرسول عليه السلام كانت أعظم؛ لأن المشركين رأوه صغيرًا ونشأ فيما بينهم، ثم سَفَّه أحلامهم وأبطل أديانهم، وهذا أمر شاق، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه، فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد.

السؤال الثاني: لم ذكر: ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ **والجواب:** تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا عُلى عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة.

السؤال الثالث: أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون القيامة، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد ﷺ، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين في العذاب؟ **والجواب:** يقال: بئر جهنام، إذا كان بعيد القعر، فكأنه تعالى يقول: تكبَّروا طلبًا للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين، ثم إن الفريقين وإن اشتراكا في ذلك لكنه لا ينافي اشتراكهم في هذا القدر تفاوتهم في مراتب العذاب، واعلم أن الوجه في حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين: إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك، وهذا القسم الثاني هو أقبح القسمين، والإحسان أيضًا على قسمين: إحسان إلى من أحسن إليك، وإحسان إلى من أساء إليك، وهذا أحسن القسمين، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان، وإساءتهم وكفرهم

أقبح أنواع الإساءة، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع، وبالزنا رجم، وبالقتل قصاص، بل شتم المماثل يوجب التعزير، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل، فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنايات، لا جرم استحقوا أعظم العقوبات، وهو نار جهنم، فإنها نار في موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه ألبتة، ثم كأنه قال قائل: هب أنه ليس هناك رجاء الفرار، فهل هناك رجاء الإخراج؟ فقال: لا بل يبقون خالدين فيها، ثم كأنه قيل: فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم؟ فقال: لا بل يذمونهم ويلعنونهم لأنهم شر البرية.

السؤال الرابع: ما السبب في أنه لم يقل ههنا: (خالدين فيها أبدًا)، وقال في صفة أهل الثواب: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾[البينة: ٨] ؟**والجواب من وجوه: أحدها:** التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه. **وثانيها:** أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل. **وثالثها:** روى حكاية عن الله أنه قال: يا داود حببني إلى خلقي. قال: وكيف أفعل ذلك؟ قال: اذكر لهم سعة رحمتي. فكان هذا من هذا الباب.

السؤال الخامس: كيف القراءة في لفظ البرية؟**الجواب:** قرأ نافع: (البريئة) بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، وهو من برأ الله الخلق، والقياس فيها الهمز إلا أنه تُرك همزه، كالنبي والذرية والخابية، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك في الاستعمال، كما أن من همز النبي كان كذلك، وترك الهمز فيه أجود، وإن كان الهمز هو الأصل؛ لأن ذلك صار كالشيء المرفوض المتروك. وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال: إنه من البرا الذي هو التراب.

السؤال السادس: ما الفائدة في قوله: ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ؟**الجواب:** أنه يفيد النفي والإثبات، أي هم دون غيرهم، واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها، شر من السراق؛ لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ، وشر من قطاع الطريق؛ لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف؛ لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح.

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد.

السؤال السابع: هذه الآية هل هي مجراة على عمومها؟**الجواب:** لا بل هي مخصوصة بصورتين: **إحداهما:** أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد. **والثانية:** قال بعضهم: لا يجوز أن يدخل في الآية من مضى من الكفار؛ لأن فرعون كان شرًّا منهم، فأما الآية الثانية وهي الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر؛ لأنهم أفضل الأمم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الوجه في حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه: **أحدها:** أن الوعيد كالدواء،

والوعد كالغذاء، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقيًّا انتفع بالغذاء، فإن البدن غير النقي كلما غذوته زدته شرًّا، هكذا قاله بقراط في كتاب (الفصول) **وثانيها:** أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحًا للمدارس والخف، أما قبله فلا، ولذلك فإن الإنسان متى وقع في محنة أو شدة رجع إلى الله، فإذا نال الدنيا أعرض، على ما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] **وثالثها:** أن فيه بشارة، كأنه تعالى يقول: لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذي هو بشارة مني في أني أختم أمرك بالخير، ألست كنت نجسًا في مكان نجس، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهرًا، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهرًا؟!

المسألة الثانية: احتج من قال: إن الطاعات ليست داخلة في مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة في هذه الآية على الإيمان، والمعطوف غير المعطوف عليه.

المسألة الثالثة: قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يقل: (إن المؤمنين) إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله، ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]ولفظة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي فعلوا الإيمان مرة.

واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب، والذي يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب، فعلمنا أنه ما صدر الإيمان عنه في الحقيقة قبل ذلك.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من مقابلة الجمع بالجمع، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ.

المسألة الخامسة: احتج بعضهم بهذه الآية في تفضيل البشر على الملك، قالوا: روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ مَنْزِلَةِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنْزِلَةُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ من ذلك، واقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾».

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه: أحدها: ما روي عن يزيد النحوي أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة. **وثانيها:** أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك. **وثالثها:** أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل، قالوا: وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هي مسكن الشياطين، وأيضًا فمصالحنا منتظمة بهم ورزقنا في يد البعض وروحنا في يد البعض، ثم هم العلماء ونحن المتعلمون، ثم انظر إلى عظيم همتهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢٩]أي

لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية، وأنت أبدًا عبد البطن والفرج، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبي لأنه تعالى مدح النبي بإحياء ثلثي الليل وقال فيهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ومرة: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وتمام القول في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف في مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقًا من المحن والآفات، فصاغه من أنجس شيء في أضيق مكان إلى أن خرج باكيًا لا للفراق ولكن مشتكيًا من وحشة الحبس ليرحم، كالذي يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم، ثم لم يرحم بل شُدته القابلة ولم يكن مشدودًا في الرحم، ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوه في المهد وشدوه بالقماط، ثم لم يمض قليل حتى أسلموه إلى أستاذ يحبسه في المكتب ويضربه على التعليم، وهكذا إلى أن بلغ الحلم، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف، ثم إن المكلف يصير كالمتحير، يقول: من الذي يفعل فيَّ هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عني جناية؟! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل، فوجده عالمًا لا يشبه العالمين، وقادرًا لا يشبه القادرين، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة، لكن حقيقته محض الكرم والرحمة، فترك الشكاية وأقبل على الشكر، ثم وقع في قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة، فجعل قلبه مسكنًا سلطان عرفانه، فكأن الحق قال: عبدي أنزل معرفتي في قلبك حتى لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك. فيقول العبد: يا رب أنزلت حب الثدي في قلبي ثم أخرجته، وكذا حب الأب والأم، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل، أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي. ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة في أرض القلب انفجر من هذا الينبوع أنهار وجداول، فالجدول الذي وصل إلى العين حصل منه الاعتبار، والذي وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم، وهكذا في جميع الأعضاء والجوارح، فيقول الله: عبدي جعلت قلبك كالجنة لي وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة، فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا، فأنا أَوْلى بالجود والكرم والرحمة فجنة بجنة، فلهذا قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بل كأن الكريم الرحيم يقول: عبدي أعطاني كل ما ملكه، وأنا أعطيته بعض ما في ملكي، وأنا أَوْلى منه بالكرم والجود، فلا جرم جعلت هذا البعض منه موهوبًا دائمًا مخلدًا، حتى يكون دوامه وخلوده جابرًا لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية.

المسألة الثانية: الجزاء اسم لما يقع به الكفاية، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن

الماء، فهذا يفيد معنيين: **أحدهما:** أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص. **والثاني:** أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلاً، على ما قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١].

المسألة الثالثة: قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ فأضاف الجزاء إليهم، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥] **والجواب:** أما أهل السنة فإنهم يقولون: إنه لو قال الملك الكريم: (من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار) فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي، فقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ يكفي في صدقه هذا المعنى. وأما المعتزلة فإنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥]: إن كلمة (مِن) لابتداء الغاية، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان إنما حصل بسبب فضلك السابق فإنك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف، وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة. **فإن قيل:** فإذا كان لا حق لأحد عليه في مذهبكم، فما السبب في التزام مثل هذا الإنعام؟ **قلنا:** أتسأل عن إنعامه الأمسى حال عدمنا؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف؟ أو عن إنعامه في غد القيامة؟ فإن سألت عن الأمسي فكأنه يقول: أنا منزه عن الانتفاع والمائدة مملوءة من المنافع، فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع، فكما أن من له مال ولا عيال له فإنه يشتري العبيد والجواري لينتفعوا بماله، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه، كما روى: (الخلق عيال الله) وأما اليومي فالنعمان يوجب الإتمام بعد الشروع. فالرحمن أولى، وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك؟!

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لطائف:

أحدها: قال بعض الفقهاء: لو قال: لا شيء لي على فلان فهذا يختص بالديون وله أن يدعي الوديعة، ولو قال: (لا شيء لي عند فلان) انصرف إلى الوديعة دون الدين، ولو قال: (لا شيء لي قِبل فلان) انصرف إلى الدين والوديعة معًا، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنه وديعة والوديعة عين، ولو قال: (لفلان عليّ) فهو إقرار بالدين، والعين أشرف من الدين فقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد، فإن قيل: الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون. قلنا: المضمون خير إذا تُصور الهلاك فيه، وهذا في حق الله تعالى محال، فلا جرم قلنا: الوديعة هناك خير من المضمون.

وثانيها: إذا وقعت الفتنة في البلدة، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك، وحينئذٍ تخاف الشياطين من أن يغيروا عليها، فضع وديعة أمانتك عندي فإني أكتب لك به كتابًا يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة. وهو قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة.

وثالثها: أنه قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفيه بشارة عظيمة، كأنه تعالى يقول: أنا الذي ربيتك أولاً حين كنت معدومًا صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء، فحين كنت مطلقًا أعطيتك هذه الأشياء، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئًا وجعلته وديعة عندي فأنا أضيعها؟! كلا إن هذا مما لا يكون.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾، **فيه قولان:**

أحدهما: أنه قابل الجمع بالجمع، وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، كما لو قال لامرأتيه أو عبديه: إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا، فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما دارًا على حدة، وعن أبي يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين. وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين، ودليل القول الأول: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧] فعلى القول الأول بيَّن أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات، كذا روي مرفوعًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات، كما روي عن أبي يوسف وعليه يدل القرآن، لأنه قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فذكر أربعًا للواحد، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان، اثنان دون الاثنين، فاستحق جنتين دون الجنتين، فحصلت له أربع جنات، لسكبه البكاء من أربعة أجفان، ثم إنه تعالى قَدَّم الخوف في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦] وأخر الخوف في هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وفيه إشارة إلى أنه لا بد من دوام الخول، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلاف، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة.

المسألة السادسة: قوله: ﴿عَدْنٍ﴾ يفيد الإقامة: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٤٥] ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] يقال: عدن بالمكان، أقام، وروي أن جنات عدن وسط الجنة، وقيل: عدن من المعدن، أي هي معدن النعيم والأمن والسلامة، قال بعضهم: إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجُنة أو الجنين، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة يطوفون العالم في ساعة واحدة، فكأنه تعالى قال: إنها في إيصال المكلف إلى مشتهياته في غاية الإسراع مثل حركة الجن، مع أنها دار إقامة وعدن، وإما من الجنون فهو أن الجنة بحيث لو رآها العاقل يصير كالمجنون، لولا أن الله بفضله يثبته، وإما من الجُنة فلأنها جنة واقية تقيك من النار، أو من الجنين فلأن المكلف يكون في الجنة في غاية التنعم، ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

المسألة السابعة: قوله: ﴿تَجْرِى﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد، ومن ذلك النظر إلى الماء الجاري يزيد نورًا في البصر، بل كأنه تعالى قال: طاعتك كانت جارية ما دمت حيًّا على ما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فوجب أن تكون أنهار إكرامي جارية

إلى الأبد، ثم قال: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ إشارة إلى عدم التنغيص، وذلك لأن التنغيص في البستان إما بسبب عدم الماء الجاري فذكر الجري الدائم، وإما بسبب الغرق والكثرة، فذكر من تحتها، ثم الألف واللام في الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن، وهي نهر الماء واللبن والعسل والخمر، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء، فلا تسمى الساقية نهرًا، بل العظيم هو الذي يسمى نهرًا بدليل قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾[إبراهيم: ٣٢] فعطف ذلك على البحر.

المسألة الثامنة: اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانيًا، وروي أنه عليه السلام قال: «**إِنَّ الْخُلُودَ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرِضَا اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ**».

أما الصفة الأولى: وهي الخلود، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل.

وأما الصفة الثانية: وهي الرضا، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله، ثم إنه قدم رضا الله عنهم على قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر في المحدث، والمحدث لا يؤثر في الأزلي.

المسألة التاسعة: إنما قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ ولم يقل رضي الرب عنهم ولا سائر الأسماء لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله؛ لأنه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها، أعني صفات الجلال وصفات الإكرام، فلو قال: (رضي الرب عنهم) لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المربي قد يكتفي بالقليل، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة، فقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة.

المسألة العاشرة: اختلفوا في قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ فقال بعضهم: معناه رضي أعمالهم، وقال بعضهم: المراد رضي بأن يمدحهم ويعظمهم. قال: لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله. وهذا هو الأقرب.

وأما قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ فالمراد أنهم رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الخوف في الطاعة حال حسنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون: ٦٠] ولعل الخشية أشد من الخوف؛ لأنه تعالى ذكره في صفات الملائكة مقرونًا

بالإشفاق الذي هو أشد الخوف فقال: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والكلام في الخوف والخشية مشهور.

المسألة الثانية: هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلاً على فضل العلم والعلماء، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية، وهذه الآية وهي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة، فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهي إلى حد يصير معه آمنًا لا بأن يعلم أنه من أهل الجنة، وجعل هذه الآية دالة عليه. وهذا المذهب غير قوي، لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَعْرَفُكُمْ بِاللَّهِ أَخْوَفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَا أَخْوَفُكُمْ مِنْهُ».

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «لم يكن»

وهي مكِّيةٌ في قولِ يحيى بنِ سلام. ومدنيةٌ في قول ابنِ عباس والجمهور[1]. وهي تسعُ آيات.

وقد جاء في فَضْلِها حديثٌ لا يصحُّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرميِّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهبْ إلى الهيثم[2] الخشَّاب فاكتُبْ عنه فإنه قد كَتَب، فذهبت إليه، فقال: حدَّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ، فتعلَّموها» فقال رجلٌ من خزاعةَ: وما فيها من الأجر يا رسولَ الله؟ قال: «لا يقرؤها منافقٌ أبداً، ولا عبدٌ في قلبه شكٌّ في الله. والله إنَّ الملائكةَ المقرَّبين يقرؤونها مُنذُ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ وما يَفْتُرُون من قراءتها. وما مِن عبدٍ يقرؤها إلَّا بعث الله إليه ملائكةً يحفظونه في دينه ودنياه، ويَدْعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضْرميُّ: فجئتُ إلى أبي عبدِ الرحمن بن نُمير، فألقيتُ هذا الحديثَ عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونَتَه، فلا تَعُدْ إليه[3].

قال ابن العربيِّ[4]: روى إسحاقُ بنُ بشرٍ الكاهليُّ عن مالك بن أنس، عن يحيى ابن سعيد، عن ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، عن النبيِّ ﷺ: «لو يَعْلَمُ الناسُ ما في

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٥، وأخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧.

(٢) في النسخ: أبي الهيثم، والمثبت من المحدث الفاصل ص ٣١٥، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) يعني أن رواية مثل هذا الحديث تبين حال راويه؛ لأنه حديث باطل لا أصل له. قاله الخطيب، كما ذكر الحافظ في اللسان ٦/ ٢٠٦ في ترجمة الهيثم بن خالد الكوفي الخشاب.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٧، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

[لم يكن] الذين كفروا، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ ولتعلَّموها»[1]. حديثٌ باطلٌ، وإنَّما الحديثُ الصحيحُ ما روي عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأبيّ بنِ كعب: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك: «لم يكن الذين كفروا» قال: وسمَّاني لك!؟ قال: «نعم»، فبَكَى.

قلت: خرَّجه البخاريُّ ومسلم[2]. وفيه من الفقهِ قراءةُ العالِم على المتعلِّم. قال بعضُهم: إنَّما قرأ النبيُّ ﷺ على أُبيٍّ، ليعلِّم الناسَ التواضُعَ؛ لئلَّا يأنَفَ أحدٌ من التعلُّم والقراءةِ على مَن دونَه في المنزلة.

وقيل: لأن أُبيًّا كان أسرعَ أخذًا لألفاظِ رسولِ اللهِ ﷺ، فأراد بقراءته عليه أن يأخذه ألفاظَه ويقرأ كما سمع منه، ويعلِّم غيرَه. وفيه فضيلةٌ عظيمةٌ لأبيٍّ؛ إذ أَمَر اللهُ رسولَه أن يقرأ عليه.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بنُ الهيثم بن خالد، قال: حدَّثنا علي بن الجعد، قال: حدَّثنا عكرمةُ، عن عاصم، عن زِرّ بن حُبيش قال: في قراءةِ أبيّ بن كعب: ابنُ آدمَ لو أُعطِيَ واديًا من مال لالتمسَ ثانيًا، ولو أُعطي واديَيْنِ من مالٍ لالتمسَ ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب[3]. قال عكرمةُ: قرأ عليَّ عاصم: «لم يَكُنْ» ثلاثين آيةً، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطلٌ عند أهلِ العلم؛ لأنَّ قراءَتَي ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو متَّصِلَتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكورُ في «لم يكن» ممَّا هو معروفٌ في حديثِ رسولِ الله ﷺ، على أنَّه من كلامِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، لا يَحْكيه عن ربِّ العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماعُ أَثْبتُ ممَّا يَحْكيه واحدٌ مخالِفاً[4] مذهبَ الجماعةِ.

---

(١) أخرجه بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٤/٥٣٨، وسقط قوله: عن أبي الدرداء، من مطبوع أحكام القرآن.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠٩)، وصحيح مسلم (٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٢٣٢٠)، وسلف ١٧/ ١٦٢.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) من طريق شعبة، عن عاصم، عن زر، عن أبي بن كعب ﷺ. وينظر ما سيأتي ص٤٥٠ من هذا الجزء.

(٤) في (د) و(م): مخالف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كذا قراءةُ العامَّة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود: «لم يَكُنِ المشركون وأهلُ الكتابِ مُنْفَكِّين»[1] وهذه قراءةٌ على التفسير؛ قال ابن العربيّ[2]: وهي جائزةٌ في مَعْرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة، فقد قرأ النبيُّ ﷺ في روايةِ الصحيح: «فَطَلِّقُوهنَّ لِقُبُل عِدَّتهنَّ»[3] وهو تفسيرٌ؛ فإنَّ التلاوةَ هو ما كان في خطِّ المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اليهودَ والنصارى. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفاً على «أهل الكتاب». قال ابن عباس: «أهلُ الكتابِ»: اليهودُ الذين كانوا بيثرِبَ، وهم قُرَيظَةُ والنَّضِيرُ وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكةَ وحَوْلَها، والمدينةِ والذين حولَها، وهم مشركو قريش. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: مُنْتَهين عن كفرهم، زائلين[4] عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: محمدٌ ﷺ.

وقيل: الانتهاءُ: بلوغُ الغاية، أي: لم يكونوا لِيَبلُغوا نهايةَ أعمارِهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينةُ. فالانفكاكُ على هذا بمعنى الانتهاء.

وقيل: «مُنفكِّين»: زائلين، أي: لم تكن مدتُهم لتزولَ حتى يأتيهم رسولٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٦ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٩٥٧ ، وما قبله منه.

(٣) صحيح مسلم (١٤٧١): (١٤) من حديث ابن عمر ، وفيه: «... فطلقوهن في قبل عدَّتهن». وينظر ما سلف ٢١/٣٣ عند تفسير الآية الأولى من سورة الطلاق.

(٤) في (م): مائلين.

والعربُ تقول: ما انفكَكْتُ أفعلُ كذا، أي: ما زِلْتُ. وما انفكَّ فلان قائماً: أي: ما زال قائماً.

وأصلُ الفَكِّ: الفتحُ؛ ومنه: فكُّ الكتاب[١]، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم. قال طَرَفة:

فَآلَيْتُ لا يَنفَكُّ كَشْحي بِطانَةً لِعَضْبٍ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ[٢]

وقال ذو الرُّمة:

حَرَاجِيجُ ما تَنفكُّ إلّا مُناخَةً على الخَسْفِ أَوْ نَرْمي بها بلداً قَفْرا[٣]

يريد: ما تنفكُّ مُناخةً، فزاد «إلّا»[٤].

وقيل: «منفكِّين»: بارِحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا ويُفارِقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهلُ الكتابِ تارِكينَ صفةَ محمدٍ ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث، فلمَّا بُعث حَسَدوه وجَحَدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وعلى هذا فقولُه: «والمُشْرِكينَ»، أي: ما كانوا يسيئون القولَ في محمدٍ ﷺ حتى بُعِث؛ فإنَّهم كانوا يُسمُّونه الأمين، حتى أتتهم البينةُ على لسانه وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه.

---

(١) وهو إزالةُ ختمه وفتحُه. تفسير الرازي ٣٢/ ٤١ .

(٢) ديوان طرفة ص ٣٧ . قوله: آليت، أي: حلفت. لا ينفك: لا يزال. والكشح: الجنب، والمعنى: لا يزال حنبي لاصقاً بالسيف. والعَضْب: السيف القاطع، وشفرتاه: حدَّاه. ومهند: منسوب إلى الهند. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٨٩ ، وللتبريزي ص ١١٦ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤١٩ . قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: حراجيج: ضُمْرٌ (يعني النوق). ما تنفك: ما تزال. والخسف: الجوع، وهو أن تبيت على غير علف.

(٤) ضرائر الشعر لابن عصفور ص ٧٥ - ٧٦ ، وهي في قول بعض النحويين ليست زائدة، فقدَّر في «تنفك» التمام، ونصب مناخة على الحال، والمعنى: ما تنفصل عن جهد ومشقة إلا في حال إناختها على الخسف، ورَمْي البلد القفر بها، أي: تنتقل من شدة إلى شدة. أمالي ابن الشجري ٢/ ٣٧٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨١ .

وقال بعض اللُّغويين: «مُنْفَكِّينَ»: هالكين، من قولهم: انفكَّ صَلَا المرأةِ[١] عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتَهلك. المعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين، إلَّا بعد قيامِ الحجةِ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقال قومٌ في «المشركين»: إنَّهم من أهل الكتاب؛ فمِن اليهود من قال: عزيرٌ ابنُ الله. ومن النصارى مَن قال: عيسى هو الله. ومنهم مَن قال: هو ابنه. ومنهم مَن قال: ثالثُ ثلاثةٍ.

وقيل: أهلُ الكتابِ كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: «والمُشْرِكينَ».

وقيل: المشركون وصفُ أهلِ الكتابِ أيضاً؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثةٌ، وعامَّةُ اليهودِ مُشَبِّهةٌ، والكلُّ شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاءُ والظُّرفَاء، وأنتَ تريد أقوامًا بأعيانهم[٢]، تَصِفُهم بالأمرين. فالمعنى: مِن أهلِ الكتابِ المشركين.

وقيل: إنَّ الكفر هنا هو الكفرُ بالنبيِّ ﷺ، أي: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ من اليهود والنصارى، الذين هم أهلُ الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين؛ قال القشيريُّ: وفيه بعدٌ؛ لأنَّ الظاهر من قوله: «حتى تأتيهم البينةُ. رسولٌ مِن اللهِ» أنَّ هذا الرسول هو محمدٌ ﷺ. فيبعُدُ أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ منفكِّين حتى يأتيهم محمد، إلَّا أنْ يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآنَ بمحمدٍ؛ وقد[٣] كانوا من قبلُ

(١) كذا نقل المصنف عن البغوي ٤/ ٥١٣ ، ومثله في البحر ٨/ ٤٩٨ . وذكر أبو عبيد في الغريب المصنف ١/ ٦٨ عن الأصمعي: انهكَّ صلا المرأة انهكاكاً، ومثله في تهذيب اللغة ٥/ ٣٤١ ، ومجمل اللغة ٣/ ٨٩١ ، والصحاح (هكك)، واللسان (هكك). والصلا: وسط الظهر، أو ما انحدر من الوَرِكين. القاموس (صلو).

(٢) في النسخ الخطية: بعينهم.

(٣) في (م): وإن.

مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيِّن لهم الآيات، فحينئذٍ يؤمنُ قوم.

وقرأ الأعمشُ وإبراهيم: «والمشركُونَ» رفعاً، عطفاً على «الذين»[١]. والقراءةُ الأولى أَبْيَنُ؛ لأنَّ الرفع يصير فيه الصِّنفان كأنهم من غير أهل الكتاب.

وفي حرفِ أبيٍّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكِّين»[٢]. وفي مصحفِ ابنِ مسعود: «لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين». وقد تقدَّم[٣].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: حتى أتتهم. والبيِّنَةُ: محمدٌ ﷺ. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بَعيثٌ من الله جلَّ ثناؤه. قال الزَّجَّاج[٤]: «رسولٌ» رفع على البدل من «البينة». وقال الفرَّاء: أي: هي رسولٌ من الله، أو: هو رسولٌ من الله؛ لأنَّ البينة قد تذكَّر فيقال: بيِّنتي فلان. وفي حرفِ أُبيٍّ وابن مسعود: «رَسُولًا» بالنصب على القطع[٥].

﴿يَتْلُوا۟﴾ أي: يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوةً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرفُ المكتوب. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزُّور والشكِّ والنفاق والضَّلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب والشُّبُهات والكفر، والمعنى واحد. أي: يقرأ ما تتضمَّنُ الصحفُ من المكتوب، ويدلُّ عليه أنه كان يتلو عن ظَهْرِ قلبِه لا عن كتاب؛ لأنه كان أمِّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ.

و«مُطَهَّرَةً»: مِن نَعْتِ الصُّحف، وهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس: ١٣]، فالمطهرةُ نعتٌ للصُّحفِ في الظاهر، وهي نعتٌ لِمَا في الصُّحف من القرآن.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٤٩٨ دون نسبة.

(٢) ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٦ بلفظ: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».

(٣) في بداية تفسير هذه الآية.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، والقراءات الشاذة ص ١٧٦، والكشاف ٤/ ٢٧٤.

وقيل: «مطهرة» أي: ينبغي ألَّا يَمَسَّها إلَّا المطهَّرون، كما قال في سورة الواقعة حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه[١].

وقيل: الصُّحف المطهَّرة: هي التي عند الله في أمِّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. قال الحسن: يعني الصُّحفَ[٢] المطهَّرةَ في السماء.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمةٌ مستويةٌ مُحْكَمةٌ، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح.

وقال بعضُ أهلِ العلم: الصحفُ هي الكتب، فكيف قال: في صحفٍ فيها كُتب؟

فالجواب: أنَّ الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى: حَكَم. وقال ﷺ: «والله لأقضِينَّ بينكما بكتابِ الله» ثم قضى بالرَّجم[٣]، وليس ذِكْرُ الرَّجْمِ مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحُكْمِ الله تعالى، وقال الشاعر:

ومـالَ[٤] الـولاءُ بـالـبـلاءِ فـمـلـتُـمُ ... وما ذاكَ قـال الـلـهُ إذ هـو يَـكْـتُـبُ[٥]

وقيل: الكتبُ القيِّمة: هي القرآن، فجعله كتباً لأنه يشتملُ على أنواعٍ من البيان.

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) منها.

(٢) في (ز) و(ظ): بالصحف، وفي (د): في الصحف، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٦٩٥، ٢٦٩٦)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، وسلف ٦/ ١٤٥ و٧/ ٢٥١. والكلام بنحوه في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٤، وغريب الحديث له ١/ ٧٠.

(٤) في النسخ: وما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ لابن قتيبة، وغريب الحديث له ١/ ٧٠، ونسبه ابن قتيبة للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٠ برواية:

ومـال الـولاء بـالـبـلاء فـمـلـتـم ... عـلـيـنـا وكـان الـحـقُّ أن تـتـقـربـوا

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى. خصَّ أهلَ الكتابِ بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم عِلْمٌ، فإذا تفرَّقوا كان غيرهم ممَّن لا كتابَ له أَدْخَلُ في هذا الوصف.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البيِّنةُ الواضحة. والمعنيُّ به محمدٌ ﷺ، أي: بالقرآن[١] موافقاً لمَا في أيديهم من الكتاب بنَعْتِه وصِفَتِه. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوَّته، فلمَّا بُعِث جحدوا نبوَّته وتفرَّقوا، فمنهم مَن كفر بغياً وحسداً، ومنهم مَن آمَن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وقيل: «البينة»: البيانُ الذي في كتبهم أنه نبيٌّ مرسَلٌ. قال العلماء: مِن أوّل السورة إلى قوله «قَيِّمَةٌ»: حكمها فيمَن آمَن مِن أهل الكتاب والمشركين. وقوله: «وما تفرق»: حُكْمُه فيمَن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيامِ الحجج.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: وما أُمِر هؤلاء الكفارُ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: ليوحِّدوه. واللامُ في «لِيعبدوا» بمعنى «أنْ»، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أنْ يبيِّن، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وفي حرفِ عبدِ الله: «وما أُمِروا إلَّا أنْ يَعبدوا اللهَ»[٢].

(١) في (م): القرآن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ .

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادةَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وفي هذا دليلٌ على وجُوب النيةِ في العبادات؛ فإنَّ الإخلاص مِن عَمَلِ القلب، وهو أن[١] يرادَ به وجهُ الله تعالى لا غيره.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾: أي: مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: «حنفاء»: على دين إبراهيمَ عليه السلام[٢]. وقيل: الحَنِيف: مَن اختَتَن وحج؛ قاله سعيد بن جبير[٣]. قال أهلُ اللغةِ: وأصلُه أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام، أي: مالَ إليه.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: يُعطوها عند مَحِلِّها ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدينُ الذي أُمِروا به دِينُ القَيِّمة، أي: الدينُ المستقيم. وقال الزجَّاج[٤]: أي: ذلك دِينُ المِلَّةِ المستقيمة، و«القيِّمة» نعتٌ لموصوفٍ محذوف. أو يقال: دِينُ الأمةِ القَيِّمة بالحق، أي: القائمةِ بالحقّ.

وفي حرف عبد الله: «وذلك الدِّينُ القَيِّمة»[٥]. قال الخليل: «القَيِّمة» جمعُ القَيِّم، والقيم والقائم واحد[٦].

وقال الفرَّاء: أضاف الدِّين إلى القيمة وهو نعتُه؛ لاختلاف اللَّفْظَين. وعنه أيضاً:

---

(١) في (م): وهو الذي، والمثبت من النسخ الخطية، والكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١.

(٢) ذكره الرازي ٣٢/ ٤٦ عن مجاهد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٠.

(٥) في النسخ: القيم، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والكشاف ٤/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، قال أبو حيان: فالهاء على هذه القراءة للمبالغة، أو أنث على أن عنَى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت، يريد: ما هذه الصيحة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٤.

هو من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى نفسه، ودخلت الهاءُ للمدح والمبالغة[١]. وقيل: الهاءُ راجعةٌ إلى الملَّة أو الشريعة.

وقال محمد بن الأشعث الطَّالقانيُّ[٢]: «القَيِّمة» هاهنا: الكتبُ التي جرى ذِكْرها، والدِّينُ مضافٌ إليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «المشركين»: معطوفٌ على «الَّذين»، أو يكونُ مجروراً معطوفاً على «أهل». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين[٣]، من قولهم: بَرَأ الله الخَلْقَ، وهو البارئُ الخالق، وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

الباقون بغير همزٍ، وشدِّ الياءِ عِوضاً منه. قال الفَرَّاء[٤]: إنْ أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصلُه غيرُ الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللهُ يبرُوه بَرْوًا، أي: خَلَقه.

قال القُشَيْرِيُّ: ومَن قال البَرِية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخلُ الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّة: مِن بَرَيْت القَلَم، أي: قدَّرته، فتدخل فيه الملائكة. ولكنَّه قولٌ ضعيف؛ لأنَّه يجب منه تخطئةُ مَن هَمَز.

وقولُه: «شرُّ البَرِيَّة» أي: شرُّ الخليقة؛ فقيل: يحتملُ أن يكون على التعميم. وقال

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٤، وتفسير الرازي ٣٢/ ٤٧.

(٢) قوله في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٣) السبعة ص ٦٩٣، والتيسير ص ٢٢٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (برا).

قومٌ: أي: هم شرُّ البريةِ الذين كانوا في عصر النبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] أي: على عالَمِي زمانِكم. ولا يبعدُ أن يكون في كفار الأمم قبلَ هذا مَن هو شرٌّ منهم، مثل فرعون وعاقرِ ناقةِ صالح. وكذا «خَيْرُ الْبَرِيَّة»: إمَّا على التعميم، أو خير بَرِيةِ عصرِهم.

وقد استدلَّ بقراءة الهمز مَن فضَّل بني آدمَ على الملائكة، وقد مضى في سورة البقرة القولُ فيه(١). وقال أبو هريرةَ ﷺ: المؤمنُ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ من بعض الملائكة الذين عنده(٢).

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي: ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالِقهم ومالِكِهم ﴿جَنَّٰتُ﴾ أي: بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة. والمفسِّرون يقولون: «جَناتُ عَدْنٍ» بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي: وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن عُدُوناً: أقام. ومَعْدِنُ الشيء: مَرْكزُه ومُسْتقَرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُسْتَضافوا إلى حُكْمِه ... يُضافوا إلى راجِحٍ قد عَدَنْ(٣)

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضِيَ أعمالَهم؛ كذا قال ابن عباس(٤). ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: رَضُوا هم بثوابِ الله عزَّ وجلَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجنة ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي: خاف ربَّه، فتناهَى عن المعاصي.

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه موقوفاً البيهقي في الشعب (١٥٢)، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٤٧)، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٩٩ من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، والموقوف والمرفوع في إسناديهما يزيد بن سنان أبو المهزِّم، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك.

(٣) ديوان الأعشى ص ٦٩ برواية: يضافوا إلى هادنٍ قد رَزَنْ، وهو في اللسان (وزن) برواية: عادلٍ قد وَزَنْ.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٥٦ دون نسبة.

سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾

مُختلَفٌ فيها، وآيُها ثمانٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليَهودِ والنَّصارى؛ فإنَّهُم كفرُوا بالإلحادِ في صفاتِ اللهِ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: وعَبَدةِ الأصنامِ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عمَّا كانوا عليه مِن دينِهم، أو الوعدِ باتِّباعِ الحَقِّ[1] إذا جاءَهُم الرَّسُولُ.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾: الرَّسولُ أو القرآنُ؛ فإنَّه مُبيِّنٌ للحقِّ، أو مُعْجزٌ: الرَّسولُ بأَخلاقِه، والقُرآنُ بإفحامِه مَن تَحدَّى به[2].

(٢) - ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ بنَفسِه، أو بتَقديرِ مُضافٍ[3]، أو مُبتدأٌ.

---

(١) قوله: «أو الوعد باتباع الحق» عطفٌ على «ما كانوا عليه» أو على «دينهم»، ووَعْدُهم كان كاذبًا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٢٧).

(٢) قوله: «فإنه مبين للحق» توجيه لإطلاق البينة على كل منهما بأنها صفة بمعنى اسم الفاعل، وقوله: «أو معجز..» تفسير آخر على أنّ البنية بمعناها المعروف، وهو المثبت للمدَّعَى، فالمراد بها حينئذ: الأمر المعجز، وهو إمَّا في ذات الرسول عليه الصلاة والسلام بأخلاقه وصفاته كلها، أو مجموعها الخارق للعادة، و«معجز» بالتنوين، و«الرسول» مبتدأ خبره قوله: «بأخلاقه»، و«القرآن» مبتدأ خبره «بإفحامه» أي إعجازه وإسكاته و«مَن» مفعوله. عن الشهاب.

(٣) قوله: «أو بتقدير مضاف»؛ أي: بيِّنة رسول. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٢٧).

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صِفتُه، أو خبرُه[1]، والرَّسولُ وإن كانَ أُمِّيًّا لكنَّهُ لَمَّا تلا مثلَ ما في الصُّحُفِ كان كالتَّالي لها.

وقيل: المرادُ جبريلُ.

وكَوْنُ الصُّحُفِ مُطهَّرَةً: أنَّ الباطلَ لا يأتي ما فيها، وأنَّها لا يَمسُّهَا إلَّا المُطهَّرُونَ.

(٣) ـ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مكتوباتٌ مُستقيمَةٌ ناطقَةٌ بالحَقِّ.

(٤) ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عمَّا كانوا عليه بأَنْ آمَنَ بَعضُهُم أو تردَّدَ في دينِه، أو عن وعدِهِم بالإصرارِ على الكُفْرِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فيكونُ كقَوْلِه: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وإفرادُ أهلِ الكتابِ بعدَ الجَمعِ بينَهُم وبين المُشركينَ للدَّلالةِ على شناعةِ حالِهِم، وأنَّهُم لَمَّا تفرَّقُوا مَع علمِهِم كانَ غَيرُهُم بذلكَ أَوْلَى.

(٥) ـ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾؛ أي: في كُتبِهِم بما فيها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يُشرِكُونَ به ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلينَ عَن العقائدِ الزَّائغةِ ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولكنَّهُم حَرَّفُوه وعَصَوا ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: دينُ المِلَّةِ القَيِّمةِ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، أو: في الحالِ لِمُلابسَتِهِم ما يوجِبُ ذلك، واشتراكُ الفريقينِ في جنسِ العَذابِ لا يُوجِبُ اشتراكَهُما في نوعِه، فلعلَّهُ يختَلِفُ لتفاوُتِ كُفرِهِما.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ أي: الخليقةِ، وقرأ نافعٌ: ﴿البَرِيئة﴾ بالهمزِ[2] على الأصلِ.

---

(١) قوله: «صفته أو خبره» أي: صفته إن كان بدلًا، وخبره إن كان مبتدأً، ففيه لف ونشر مرتب.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٤)، عن نافع وابن ذكوان.

(٧ ـ ٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه مُبالغاتٌ: تقديمُ المَدْحِ، وذِكرُ الجزاءِ المُؤذِنِ بأنَّ ما مُنِحُوا في مُقابلَةِ ما وُصِفُوا به، والحكمُ عليه بأنَّه مِن عندِ ربِّهم، وجَمعُ ﴿جَنَّٰتُ﴾، وتَقييدُها إضافةً ووَصْفًا[٣] بما تزدادُ لها نعيمًا[٤]، وتأكيدُ الخُلودِ بالتَّأبيدِ.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بما يكونُ لهم زيادةً على جَزائِهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لأنَّه بلَّغَهُم أقصى أمانيِّهم ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكورُ مِن الجزاءِ والرِّضوانِ ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾؛ فإنَّ الخشيةَ مِلاكُ الأمرِ والباعِثُ على كلِّ خيرٍ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ كان يومَ القِيامَةِ مَع خيرِ البريَّةِ مَساءً ومَقيلًا»[٥].

***

---

(٣) في نسخة التفتازاني: «ووصفها»، وهو موافق لما في «حاشيي القونوي» (٢٠/ ٣٨٥).

(٤) قوله: «بما تزداد لها نعيما»؛ أي: بصفة تزداد الجنة «لها»؛ أي: لأجلها ـأي: لأجل الوصف بهذه الصفة أو لأجل الاتصاف بها ـ نعيماً.

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٣٨)، بلفظ: «...مع خير البرية مسافراً ومقيماً»، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

سورة البيّنة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ
ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ
رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية، هذه السورة مكية. ولما ذكر إنزال القرآن في ليلة القدر وفي السورة التي قبلها ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ۝١﴾ [العلق]، ذكر هنا أن الكفار لم يكونوا منفكّين عمّا هم عليه حتى جاءهم الرسول عليه السلام يتلو عليهم ما أُنزل عليه من الصحف المطهرة التي أُمر بقراءتها. وقسم الكافرين هنا إلى أهل كتاب وأهل إشراك. وأهل الكتاب اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان من العرب.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ اسم فاعل من انفكّ وهي التامة، وليست الداخلة، على المبتدأ

---

(١) مدنية وهي ثماني آيات.

والخبر.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من المشركين وانفصل بعضهم من بعض فقال كلٌّ ما يدلّ عنده على صحة [٥٨٤/ أ] قوله.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وكان يقتضي مجيء البيّنة أن يُجمعوا على اتّباعها.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مستقيمي الطريقة مائلين عن طرق الضلال إلى طريق الهداية.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الأمة المستقيمة.

وذكر تعالى مقر الأشقياء وجزاء السعداء. و﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ جميع الخلق. وحكم على الكفار من الفريقين بأمرين: بالخلود في النار وبكونهم شر البرية، وبدأ بأهل الكتاب، لأنهم كانوا يطعنون في نبوّته، وجنايتهم أعظم لأنهم أنكروه مع العلم به.

و﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ظاهره العموم.

سورة البَيِّنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

هذه السورة مكية في قول الجمهور. وقال ابن الزُّبير وعطاء بن يسار: مدنية. قاله ابن عطية[1]. وفي كتاب «التحرير»: مدنية، وهو قول الجمهور. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنَّها مكية، واختاره يحيى بن سلام[2].

ولمَّا ذكر إنزال القرآن في ليلة القدر وفي السورة التي قبلها ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ذكر هنا أنَّ الكفار لم يكونوا مُنفكِّين عمَّا هم عليه حتى جاءهم الرسول يتلو عليهم ما أُنزل عليه من الصُّحُف المطهَّرة التي أُمِرَ بقراءتها. وقَسَّم الكافرين هنا إلى أهل كتاب وأهل إشراك.

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٢) زاد المسير ٩/ ١٩٥. وينظر النكت والعيون ٦/ ٣١٥.

وقرأ بعض القُرَّاء: «والمشركون» رفعاً[١]؛ عطفاً على «الذين كفروا». والجمهور بالجر؛ عطفاً على أهل الكتاب.

وأهل الكتاب: اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان من العرب[٢]. وقال ابن عباس: أهل الكتاب: اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قُريظة والنَّضير وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة وحولها[٣].

وقال مجاهد وغيره: لم يكونوا مُنفَكِّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة. وقال الفرَّاء وغيرُه: لم يكونوا مُنفَكِّين عن معرفة صِحَّة نبوَّة محمد ﷺ والتوكُّفِ لأمره حتى جاءتهم البينة، فتفرقوا عند ذلك[٤].

وقال الزمخشري[٥]: كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث: لا ننفَكُّ ممَّا نحن فيه من ديننا حتى يُبعَثَ النبيُّ الموعود، الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه.

وقال ابن عطية[٦]: ويتَّجه في معنى الآية قولٌ ثالثٌ بارعُ المعنى، وذلك أنَّه يكون المرادُ: لم يكن هؤلاء القوم مُنفَكِّين من أمرِ الله تعالى وقدرتِه ونظَرِه لهم حتى يبعثَ الله تعالى إليهم رسولاً مُنذِراً، تقوم عليهم به الحجة، ويتمُّ على من آمن النِّعمة، فكأنَّه قال: ما كانوا ليُتْرَكوا سُدًى. ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى. انتهى.

وقيل: لم يكونوا مُنفَكِّين عن حياتهم فيموتوا حتى تأتيَهم البينة[٧].

والظاهر أنَّ المعنى: لم يكونوا مُنفَكِّين، أي: منفصلاً بعضُهم من بعض، بل

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧. وهي قراءة الأعمش فيما ذكر الثعلبي في تفسيره ٦/ ٥١٥.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٨، وتفسير الثعلبي ٦/ ٥١٤، وزاد المسير ٩/ ١٩٦.
(٣) تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠٦.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧. وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢٨١ بنحوه.
(٥) في الكشاف ٤/ ٢٧٤.
(٦) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.
(٧) تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠٦.

كان كلٌّ منهم مُقِرًّا الآخرَ على ما هو عليه ممَّا اختاره لنفسه، هذا من اعتقادِه في شريعته، وهذا من اعتقادِه في أصنامه، والمعنى أنَّه اتَّصلَتْ مودَّتُهم، واجتمعت كلمتُهم، إلى أن أتَتْهم البينة.

وقيل: معنى «مُنفَكِّين»: هالكين، من قولهم: انفَكَّ صَلا المرأةِ[١] عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم، والمعنى: لم يكونوا مُعذَّبين ولا هالكين إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. انتهى.

و«مُنفَكِّين» اسم فاعل من: انفَكَّ، وهي التامَّة، وليست الداخلةَ على المبتدأ والخبر[٢]. وقال بعضُ النُّحاة: هي الناقصةُ، ويُقَدَّر «مُنفَكِّين»: عارِفين أمَر محمد ﷺ، أو نحوَ هذا[٣]. وخبرُ «كان» وأخواتِها لا يجوز حَذْفُه لا اقتصاراً ولا اختصاراً، نصَّ على ذلك أصحابُنا، ولهم عِلَّةٌ في منع ذلك ذكروها في علم النَّحو، وقالوا في قوله: حينَ ليسَ مجيرُ[٤]، أي: في الدنيا، فَحذْفُ الخبر أنَّه ضرورة[٥].

و«البيِّنة»: الحُجَّة الجليَّة[٦].

---

(١) الصَّلا: وسط الظهر، أو ما انحدر من الوَرِكين. القاموس (صلو). والكلام من تفسير البغوي ٥/ ٥١٣، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠٨.

(٢) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٣٢، والهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٣٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٤) البيت بتمامه:

لهفي عليكَ كلهفةٍ من خائفٍ   يبغي جوارَكَ حينَ ليس مُجيرُ

وقائله عبد الله بن أيوب التيمي في رثاء منصور بن زياد، وسلف عند تفسير الآية (١٩٧) من سورة البقرة.

(٥) وتعقبه السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ٦٨ بقوله: وَجْهُ مَنْ منعَ ذلك أنه قال: صار الخبرُ مطلوباً من جهتين؛ من جهة كونِه مُخبَراً به فهو أحدُ جُزأَي الإسناد، ومن حيث كونه منصوباً بالفعل. وهذا مُنتَقَضٌ بمفعولَي «ظنَّ»، فإنَّ كُلًّا منهما فيه المعنيان المذكوران، ومع ذلك يُحذَفان ـ أو أحدُهما ـ اختصاراً، وأمَّا الاقتصار ففيه خلافٌ وتفصيلٌ مرَّ تفصيله في غضون هذا التصنيف.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧، والكشاف ٤/ ٢٧٤.

وقرأ الجمهور: «رسولٌ» بالرفع، بدلاً من «البينة». وأُبيٌّ وعبد الله بالنصب، حالاً من «البيِّنة»[١].

﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ أي: قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾ مكتوباتٌ ﴿قَيِّمَةٌ﴾: مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحق[٢].

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من المشركين، وانفصل بعضُهم من بعض، فقال كلٌّ ما يدلُّ عنده على صِحَّة قوله. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وكان يقتضي مجيء البينة أن يجتمعوا على اتِّباعها.

وقال الزمخشري[٣]: كانوا يَعِدون اجتماعَ الكلمة والاتفاقَ على الحق إذا جاءهم الرسول، ثمَّ ما فرَّقهم عن الحقِّ ولا أقرَّهم على الكفر إلَّا مجيءُ الرسول ﷺ. وقال أيضاً: أفرد أهلَ الكتاب يعني في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد جَمْعِهم والمشركين، قيل: لأنَّهم كانوا على عِلْم به؛ لوجوده في كتبهم، فإذا وُصِفوا بالتفرُّق عنه كان مَنْ لا كتابَ له أدْخَلَ في هذا الوصف.

والمرادُ بتَّفرُّقهم تفرُّقُهم عن الحقِّ، أو تفرُّقُهم فِرَقاً، فمنهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ أنكر وقال: ليس به، ومنهم مَنْ عَرَف وعانَد[٤].

وقال ابن عطية[٥]: ذكَرَ تعالى مذمَّةَ مَنْ لم يؤمن من أهل الكتاب مِنْ أنَّهم لم يتفرَّقوا في أمر محمدٍ ﷺ إلَّا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبلُ مُتَّفقين على نبوَّتِه وصفتِه، فلمَّا جاء من العرب حسدوه. انتهى.

وقرأ الجمهور: «مُخْلِصين» بكسر اللام، و«الدِّينَ» منصوبٌ به. والحسن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٣٢، والكشاف ٤/ ٢٧٤، وذكروا القراءة عن أُبيّ. والقراءة عن ابن مسعود في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧٤.

(٣) في الكشاف ٤/ ٢٧٤.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٣٢/ ٤٢-٤٣.

(٥) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

بفتحها[١]، أي: يُخلصون هم أنفُسَهم في نيَّاتهم.

وانتصب «الدِّين» إمَّا على المصدر من «ليعبدوا» أي: ليَدِينوا الله بالعبادة الدِّين، وإمَّا على إسقاط «في»، أي: في الدين، والمعنى: وما أُمِروا ـ أي: في كتابتهما ـ بما أُمِروا به إلَّا ليعبدوا.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مُستقيمي الطريقة، أي: مائلين عن طريق الضلال إلى طريق الهداية[٢].

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الأمة المستقيمة[٣].

وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: «القَيِّمة» هنا: الكتب التي جرى ذِكْرُها[٤]. كأنَّه لمَّا تقدم لفظُ «قَيِّمة» نكرةً كانت الألف واللام في «القَيِّمة» للعهد، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

وقرأ عبد الله: «وذلك الدِّين القَيِّمة»[٥]، فالهاء فيه في هذه القراءة للمبالغة، أو أنَّث على أنْ عنى بالدِّين المِلَّة[٦]، كقوله: ما هذه الصوت[٧]. يريد: ما هذه الصيحةُ.

وذكر تعالى مَقرَّ الأشقياء وجزاء السُّعداء.

---

(١) أي: بفتح اللام «مُخْلَصين»، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٧٦-١٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن ص٢٦٠.

(٣) الوسيط ٤/ ٥٤٠، والنكت والعيون ٦/ ٣١٧.

(٤) تفسير الثعلبي ٦/ ٥١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤١٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والكشاف ٤/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨. ووقع في القراءات الشاذة ص١٣٨ و١٧٧: «وذلك دينُ القيِّمة» في الموضعين كقراءة الجمهور!

(٦) تفسير الثعلبي ٦/ ٥١٥.

(٧) البيت بتمامه:

يا أيُّها الراكبُ المُزْجي مَطيَّتَهُ   سائِلْ بني أسدٍ ما هذه الصوتُ

وقائله رُويشد الطائي، وسلف عند تفسير الآية (٢١١) من سورة البقرة.

والبرِيَّة: جميع الخلق[١].

وقرأ الأعرج، وابن عامر، ونافع: «البَريئة» بالهمز[٢]، من برأ بمعنى: خلق. والجمهور بشدِّ الياء، فاحتمَل أن يكون أصلُه الهمز، ثمَّ سُهِّلَ بالإبدال وأُدغم. واحتمل أن يكون من البَرَى وهو التراب. قال ابن عطية: وهذا الاشتقاق يجعل الهمزَ خَطأً، وهو اشتقاقٌ غير مَرْضِيٍّ، ويعني اشتقاق «البريَّة» بلا همز من البَرَى وهو التراب. انتهى. لا يجعله خطأً، بل قراءة الهمز مشتقَّةٌ من برأ، وغيرُ الهمز من البَرَى، والقراءتان قد تختلفان في الاشتقاق، نحو: «أونَنسأها» «أونُنْسِها» [البقرة: ١٠٦] فهو اشتقاق مَرْضِيٌّ.

وحكم على الكفار من الفريقين بأمرين؛ بالخلود في النار، وبكونهم شرَّ البريَّة[٣].

وبدأ بأهل الكتاب، لأنَّهم كانوا يطعنون في نبوَّتِه، وجنايتُهم أعظَمُ؛ لأنَّهم أنكروه مع العلم به[٤].

و«شَرُّ البريَّة» ظاهره العموم. وقيل: «شَرُّ البرية»: الذين عاصروا الرسول ﷺ؛ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم مَنْ هو شَرٌّ من هؤلاء، كفرعون وعاقر ناقة صالح عليه السلام[٥].

وقرأ الجمهور: «خير البريَّة» مقابل «شرُّ البريَّة». وحميد وعامر بن عبد الواحد: «خيار البريَّة» جمع خَيِّر، كَجيِّد وجِياد[٦].

وبقية السورة واضحة، وتقدَّم شرحُ ذلك إفراداً وتركيباً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٥٠٨.

(٢) هي عن ابن عامر ـ من رواية ابن ذكوان ـ ونافع في السبعة ص٦٩٣، والتيسير ص٢٢٤. وهي عنهم في المحرر الوجيز ٥/٥٠٨ والكلام منه بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٥٠٨.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/٤٩-٥٠.

(٥) تفسير القرطبي ٢٢/٤١٣-٤١٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٧ عن عامر بن عبد الواحد.

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

عن أنس بن مالك قال؛ قال رسول الله ﷺ لأُبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم»، فبكى[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، قال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن. ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فسر البينة بقوله: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة ۞ مرفوعة مطهرة ۞ بأيدي سفرة ۞ كرام بررة﴾. وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة. ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عزَّ وجلَّ، قال قتادة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر. ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد: ﴿فيها كتب قيمة﴾ مستقيمة معتدلة. وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا. بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كبيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونِ﴾، ولهذا قال: ﴿حنفاء﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته هاهنا، ﴿ويقيموا الصلاة﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أولئك هم خير البرية﴾، ثم قال تعالى: ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ورضوا عنه﴾ فيما منحهم من الفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، «ألا أخبركم بخير البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله ولا يعطي به»[1].

[آخر تفسير سورة البينة، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.

تفسير سورة لم يكن

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ وهو ابن سلمة ـ أخبرنا على ـ هو ابن زيد ـ عن عمار بن أبى عمار قال : سمعت أبا حَيَّة البدرى ـ وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى ـ قال : لما نزلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلى آخرها ،قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبياً . فقال النبى ﷺ لأُبى : « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » . قال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبى [١] .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث شعبة ، به [٢].

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقرى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزَى ، عن أبيه ، عن أبى بن كعب قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنى أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يا رسول الله ، وقد ذُكرتُ هناك ؟ قال : « نعم» . فقلت له : يا أبا المنذر ، فَفَرِحت بذلك . قال : وما يمنعنى والله يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] . قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة فى الحديث؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه [٣] .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بَهْدَلَة ، عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن » . قال : فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه [٤] ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه [٥] لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره .

(١) المسند (٣/ ٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) وصحيح البخارى (٤٩٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/ ١٢٣) .

(٤ ، ٥) فى أ : « فأعطيته » .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، به [(١)]. وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن خليد الحلبى ،حدثنا محمد بن عيسى الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبى بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن » . قال : بالله آمنت ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبى ﷺ القول . [قال] [(٢)] : فقال : يارسول الله ، أذكرت هناك ؟ قال : « نعم ، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى » . قال : فاقرأ إذاً يارسول الله [(٣)] .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبى ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه ــ كما رواه أحمد والنسائى ،من طريق أنس ، عنه[(٤)]، ورواه أحمد وأبو داود ، من حديث سليمان بن صُرَد عنه [(٥)] ، ورواه أحمد عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت ، عنه [(٦)]، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عنه [(٧)] ، كان قد أنكر على إنسان ،وهو : عبد الله بن مسعود ، قراءة شىء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبى ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : « أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : فَفضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت :« أسأل الله معافاته ومغفرته ». فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿ **رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، والله أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» . قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ، ومُطوَّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبى ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ الآية [الفتح:٢٧] ، كما تقدم .

وروى الحافظ أبو نُعَيم فى كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفرى المدنى:

---

(١) المسند (٥/ ١٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٣) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) المعجم الكبير (١/ ٢٠٠) .

(٤) المسند (٥/ ١٢٢) وسنن النسائى (٢/ ٥٤) .

(٥) المسند (٥/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٧) .

(٦) المسند (٥/ ١١٤).

(٧) المسند (٥/ ١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (٢/ ١٥٣) .

حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبى حكيم المدنى ، حدثنى فُضَيل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فيقول : أبشر عبدى، فوعزتى لأمكننه [١] لك فى الجنة حتى ترضى » .

حديث غريب جداً . وقد رواه الحافظ أبو موسى المدينى وابن الأثير ، من طريق الزهرى ، عن إسماعيل بن أبى حكيم ،عن نَظير المزنى ـ أو : المدنى ـ عن النبى ﷺ:« إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » [٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ .

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدَةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعنى: منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة.

﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى :﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٣ــ ١٦] .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة : عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .

قال قتادة : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء.

وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) فى م : « لأملأن » ، وفى أ : « لأمكنن » .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٥٤٩) وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٥٢٨) من طريق أبى موسى ، وهى من طريق محمد بن إسماعيل بن جعفر ، عن عبد الله بن سلمة ، عن الزهرى به ، وقال: « عبد الله بن سلمة واهى الحديث » .

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » [(١)].

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام» [(٢)] بما أغنى عن إعادته هاهنا .

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهى أشرف عبادات البدن، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء [(٣)] والمحاويج . ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها .

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ــ الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ــ بأنهم خير

(١) جاء هذا الحديث من حديث أبى هريرة ، وأنس ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن عوف المزنى ، وعوف بن مالك ، وأبى أمامة ، وجابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهم ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هو حديث صحيح مشهور » وانظر : تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/٤٤٧ ــ ٤٥٠) .

(٢) عند تفسير الآية : ١٦١ .

(٣) فى أ : « الفقير » .

البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية [١] على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر ، عن أبى وهب ـ مولى أبى هريرة ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما كانت هَيْعَة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل فى ثُلَّة من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ألا أخبركم بشر[٢] البرية ؟ » . قالوا: بلى . قال : « الذى يَسأل بالله، ولا يُعطى به » [٣] .

آخر تفسير سورة « لم يكن » [٤]

(١) فى أ : « من البشر » . (٢) فى أ : « بخير » .

(٣) المسند (٢/٣٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٧٩) : « أبو معشر ـ نجيح ـ ضعيف ، وأبو معشر (كذا فيه ، والصواب : أبو وهب) مولى أبى هريرة لم أعرفه » .

(٤) فى م : « آخر تفسيرها » .

[تفسير] سورة « لم يكن »

[وهي مدنية]

قال الإمام أحمد(١) : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - هو[١] ابن سلمة - أخبرنا علي - هو ابن زيد - عن عمار بن أبي عمار قال : سمعت أبا حية البدري - وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري - قال : لما نزلت : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيًّا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي : « إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة » . قال أبي : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، قال فبكى أبي .

(حديث آخر) ، وقال الإمام أحمد(٢) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ قال : وسماني لك ؟ قال : « نعم » فبكى .

ورواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي من حديث شعبة به .

(حديث آخر) ، قال الإمام أحمد(٣) : حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقري[٢] ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى ، عن أبيه ، عن أبي بن كعب قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يا رسول الله ، وقد ذُكرت هناك ؟ قال : « نعم » فقلت له : يا أبا المنذر ، ففرحت بذلك . قال : وما يمنعني والله يقول : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة في الحديث ؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه .

---

(١) المسند (٤٨٩/٣) (١٦٠٤٨) .

(٢) المسند (١٣٠/٣) (١٢٣٤١) . والبخاري في كتاب : مناقب الأنصار ، باب : مناقب أبي بن كعب - رضي الله عنه - حديث (٣٨٠٩) (١٢٧/٧) وأطرافه في : [٤٩٥٩ ، ٤٩٦٠ ، ٤٩٦١] . ومسلم في كتاب : صلاة المسافرين ، باب : استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل . حديث (٧٩٩/٢٤٦) (٦/ ١٢٣) . والترمذي في كتاب : المناقب ، باب : مناقب معاذ وزيد وأبي بن كعب وأبي عبيدة ، حديث (٣٧٩٥) (٣٤٥/٩) . والنسائي في الكبرى في كتاب : التفسير ، باب : سورة البينة ، حديث (١١٦٩١) (٥٢٠/٦) .

(٣) أخرجه أحمد (١٢٣/٥) (٢١٢١٧) .

---

[١] - في ت : وهو . [٢] - في ز : المقري .

(طريق أخرىٰ) ، قال أحمد(٤) : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش ، عن أبي بن كعب قال : إن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال لي : « إن اللّٰه أمرني أن أقرأ عليك القرآن - قال : فقرأ : - ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ - قال : فقرأ فيها : - ولو أن ابن آدم سأل واديًا من مال ، فأعطيه ، لسأل ثانيًا ، ولو سأل ثانيًا فأعطيه لسأل ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللّٰه علىٰ من تاب . وإن ذلك[١] الدين عند اللّٰه الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيرًا فلن يكفره » .

ورواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة به وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى قال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٥) : حدثنا أحمد بن خليد الحلبي ، حدثنا محمد ابن عيسىٰ الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبي بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « يا أبا المنذر : إني أمرت أن أعرض عليك القرآن » قال : آمنت باللّٰه ، وعلىٰ يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم القول ، فقال : يا رسول اللّٰه ، أذكرت هناك ؟ قال : « نعم ، باسمك ونسبك في الملأ الأعلىٰ » . قال : فاقرأ إذًا يا رسول اللّٰه .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم هذه السورة تثبيتًا له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه - كما رواه أحمد(٦) والنسائي ، من طريق أنس ، عنه .

ورواه أحمد(٧) وأبو داود من حديث سليمان بن صرد عنه ، ورواه أحمد(٨) عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت ، عنه .

ورواه أحمد(٩) ومسلم وأبو داود والنسائي ، من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن

---

(٤) المسند (١٣١/٥) (٢١٢٨٢) . والترمذي في كتاب : المناقب ، باب : مناقب معاذ بن جبل وزيد ابن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهم - ، حديث (٣٧٩٣) (٦٢٤/٥- شاكر) .

(٥) معجم الطبراني (٢٠٠/١) (٥٣٩) .

(٦) المسند (١١٤/٥ ، ١٢٢) (٢١١٧٠ ، ٢١٢١٢) . والنسائي (١٥٤/٢) كتاب : الافتتاح ، باب : جامع ما جاء في القرآن .

(٧) المسند (١٢٤/٥) (٢١٢٢٩ - ٢١٢٣٢) . وأبو داود في كتاب : الصلاة ، باب : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، حديث (١٤٧٧) (٧٦/٢) .

(٨) المسند (١١٤/٥) (٢١١٦٩) .

(٩) المسند (١٢٧/٥) (٢١٢٥١) . ومسلم في كتاب : صلاة المسافرين ، باب : بيان أن القرآن على =

---

[١] - في ز ، خ : دار .

عبد[١] اللّه بن عيسىٰ ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ ، عنه - كان قد أنكر علىٰ إنسان ، وهو : عبد اللّه بن مسعود ، قراءة شيء من القرآن علىٰ خلاف ما أقرأه رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم فرفعه إلىٰ النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم فاستقرأهما ، وقال لكل منهما : « أصبت » . قال أبيّ : فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية . فضرب رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم في صدره ، قال أبي[٢] : ففضت عرقًا ، وكأنما أنظر إلىٰ اللّه فرقًا . وأخبره رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم أن جبريل أتاه فقال : إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن علىٰ حرف . فقلت : « أسأل اللّه معافاته ومغفرته » . فقال : علىٰ حرفين . فلم يزل حتىٰ قال : إن اللّه يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن علىٰ سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه في أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها : ﴿ **رسول من اللّه يتلو صحفًا مطهرة * فيها كتب قيمة** ﴾ ، قرأها عليه رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، واللّه أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ [قال : « بلىٰ ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا » . قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ومطوف به »][٣] . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل اللّه علىٰ النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم « سورة الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله[٤] : ﴿ **لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين ...** ﴾ الآية ، كما تقدم(١٠) .

وروىٰ الحافظ أبو نعيم في كتابه « أسماء الصحابة » ، من طريق محمد بن إسماعيل الجعفري المدني : حدثنا عبد اللّه بن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبي حكيم المدني [حدثني][٥] فضيل : سمعت رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يقول : « إن اللّه ليسمع قراءة ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ ، فيقول : أبشر عبدي ، فوعزتي لأمكنن[٦] لك في الجنة حتىٰ ترضىٰ » .

= سبعة أحرف ، وبيان معناه ، حديث (٨٢٠/٢٧٣) (١٤٦/٨ - ١٤٩) . وأخرجه أبو داود في كتاب : الصلاة ، باب : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، حديث (١٤٧٨) (٧٦/٢) . والنسائي في كتاب : الافتتاح ، باب : جامع ما جاء في القرآن ، (١٥٢/٢ - ١٥٣) . كلاهما من طريق محمد بن جعفر عن شعبة عن الحكم عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى .

(١٠) تقدم تخريجه في تفسير سورة الفتح ، آية (٢٧) .

[١] - في ز ، خ : عبيد .
[٢] - سقط من ز ، خ .
[٣] - ما بين المعكوفين سقط من ز ، خ .
[٤] - سقط من خ .
[٥] - في ز : « أحد بني » .
[٦] - في ت : لأمكننه .

حديث غريب جدًّا وقد رواه الحافظ أبو موسى المديني وابن الأثير(١١) من طريق الزهري عن إسماعيل بن أبي حكيم عن [نظير][١] المزني - أو : المدني - عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن الله ليسمع قراءة ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فيقول**[٢] : **أبشر عبدي ، فوعزتي لا أنساك علىٰ حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكنن لك في الجنة حتىٰ ترضىٰ** » .

[قوله تعالى][٣] :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عبده الأوثان والنيران من العرب ومن العجم .

وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ **منفكين** ﴾ يعني : منتهين حتىٰ يتبين لهم الحق ، وكذا قال قتادة .

﴿ **حتىٰ تأتيهم البينة** ﴾ ، أي : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالىٰ ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتىٰ تأتيهم البينة** ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ **رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة** ﴾ ، يعني محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذي هو مكتتب في الملإ الأعلىٰ ، في صحف مطهرة ، كقوله : ﴿ **في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة** ﴾ .

---

(١١) « أسد الغابة » لابن الأثير (٣٢٥/٥) .

---

[١] - في ز ، خ : « مطر » .

[٢] - في ت : ويقول .

[٣] - سقط من ت .

وقوله : ﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ قال ابن جرير : إن[١] في الصحف المطهرة كتب من [ ][٢] الله قيمة ، عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله - عز وجل - .

قال قتادة : ﴿ **رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة** ﴾ ، يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثني عليه بأحسن الثناء . وقال ابن زيد : ﴿**فيها كتب قيمة**﴾ مستقيمة معتدلة .

وقوله : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾ ، كقوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافًا كثيرًا ، كما جاء في[٣] الحديث المروي من طرق(١٢) : « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .

وقوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي[٤] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ؛ ولهذا قال : ﴿**حنفاء**﴾ أي : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

﴿ **ويقيموا الصلاة** ﴾ ، وهي أشرف عبادات البدن ، ﴿ **ويؤتوا الزكاة** ﴾ ، وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج . ﴿ **وذلك دين القيمة** ﴾ ، أي : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهري والشافعي ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ
﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ

(١٢) تقديم تخريجه في تفسير سورة يونس ، آية : (٩٣) برقم (٩٧) .

[١] - في ت : أي .
[٢] - في ز ، خ : كتب .
[٣] - سقط من ز ، خ .
[٤] - في ز : يوحى .

اَللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يخبر تعالىٰ عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة ؛ أنهم يوم القيامة ﴿ **في نار جهنم خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون . ﴿ **أولئك هم شر البرية** ﴾ ، أي : شر الخليقة التي برأها الله وذرأها .

ثم أخبر تعالىٰ عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، علىٰ تفضيل المؤمنين من البرية علىٰ الملائكة ، لقوله : ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **جزاؤهم عند ربهم** ﴾ ، أي : يوم القيامة ، ﴿ **جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدًا** ﴾ ، أي : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ ، ومقام رضاه عنهم أعلىٰ مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : ﴿ **ذلك لمن خشي ربه** ﴾ ، أي : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه[١] إن لم يره فإنه يراه .

وقال الإمام أحمد(١٣) : حدثنا إسحاق بن عيسىٰ ، حدثنا أبو معشر[٢] ، عن أبي وهب - مولىٰ أبي هريرة - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » . قالوا : بلىٰ ، يا رسول الله . قال : « رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة ، استوىٰ عليه[٣] . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » . قالوا : بلىٰ ، يا رسول الله . قال : « رجل في ثلة من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة . ألا أخبركم بشر البرية ؟ » . قالوا : بلىٰ . قال : « الذي يسأل بالله ، ولا يعطي به »

آخر تفسير سورة « لم يكن » [ولله الحمد والمنة]

(١٣) المسند (٣٩٦/٢) (٩١٣١) . قال الهيثمي في « مجمع الزوائد» (٢٨٢/٥) : رواه أحمد ، وأبو معشر - نجيح - : ضعيف ، وأبو معشر - كذا قال والصواب أبو وهب كما في المسند طبعة أحمد شاكر وصوبه وقال : وهو الذي في المخطوطة - مولى أبي هريرة لم أعرفه .اهـ .

[١] - سقط من ز ، خ . [٢] - في ز ، خ : معن .
[٣] - في ت : عليها .

سورة البيّنة[1]

مدنيّة،[2] وهي ثماني آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنّصارى. وإيرادُهم بذلك العنوان للإشعار بعلّة ما نُسب إليهم مِن الوعد باتّباع الحقّ، فإنّ مناط ذلك وجدانهم له في كتابهم. وإيرادُ الصلة فعلًا لِما أنّ كفرهم حادث بعد أنبيائهم. ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: عبدةِ الأصنام، وقُرئ: "وَالمُشرِكُونَ"[3] عطفًا على الموصول ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: عمّا كانوا عليه مِن الوعد باتّباع الحقّ والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان والعزم على إنجازه.

وهذا الوعد مِن أهل الكتاب ممّا لا ريبَ فيه، حتّى إنّهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللّٰهمّ افتح علينا وانصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم مِن المشركين: قد أظلّ زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قَتْل عاد وإرَم، وأمّا مِن المشركين فلعلّه قد وقع مِن متأخِّريهم بعد ما شاع ذلك مِن أهل الكتاب، واعتقدوا صحّته بما شاهدوا مِن نصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنّهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هل هو المذكور في كتابهم، وكانوا يغرُّونهم بتغيير نعوته عليه السلام.

---

[1] س: القيّمة.

[2] س: مكّيّة، وقيل مدنيّة.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤١.

وانفكاك الشيء مِن الشيء أن يُزايله بعد التحامه، كالعَظْم إذا انفكّ مِن مفصله، وفيه إشارة إلى كمال وَكَادة وعدهم، أي: لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور؛ بل كانوا مُجمعين عليه، عازمين على إنجازه.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي كانوا قد جعلوا إتيانها مِيقاتًا لاجتماع الكلمة والاتّفاق على الحقّ، فجعلوه مِيقاتًا للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد. والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حالِ المحكيّ لا باعتبار حال الحكاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة، ١٠٢/٢] أي: تلَت.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، عُبِّر عنه عليه السلام بالبيّنة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: رسول وأيّ رسول كائن منه تعالى؟

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ﴾ صفة أخرى له، أو حال مِن الضمير في متعلّق الجارّ. ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: منزَّهةً مِن الباطل، لا يأتيه مِن بين يديه ولا مِن خلفه، ومِن أن يمسّه غيرُ المطهَّرين. ونسبةُ تلاوتها إليه عليه السلام مِن حيث إنّ تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ صفة لـ﴿صُحُفًا﴾ أو حال مِن ضميرها في ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، ويجوز أن يكون الصفةُ أو الحالُ الجارَّ والمجرورَ فقط و﴿كُتُبٌ﴾ مرتفعًا به على الفاعلية.[١] ومعنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحقّ والصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾... إلى آخره، كلام مسوق لغاية تشنيعِ أهل الكتاب خاصّة وتغليظِ جناياتهم، ببيان أنّ ما نُسِب إليهم مِن الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ ما في الأمر؛ بل كان بعد وضوح الحقّ وتبيُّن الحال وانقطاعِ الأعذار بالكلّيّة، وهو السرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكُّنهم مِن مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه مِن الأحكام والأخبار التي مِن جملتها

---

١ الوجه في اللباب لابن عادل، ٤٣٨/٢٠.

نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد ذِكرهم فيما سبَق بما هو جارٍ مَجرى اسم الجنس للطائفتين.

/ ولمّا كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتّفاقهم على الرأي المذكور في حُكم [٣١٢ظ] فريق واحد عُبّر عمّا صدر عنهم عَقيب الاتّفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفيّة وقوعه بالتفرّق اعتبارًا لاستقلال كلٍّ مِن فريقَي أهل الكتاب، وإيذانًا بأنّ انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس[1] بطريق الاتّفاق على رأي آخر؛ بل بطريق الاختلاف القديم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرَّقوا في وقت مِن الأوقات إلّا مِن بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة الدالّة على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو الموعود في كتابهم دلالةً جليّةً لا ريبَ فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [آل عمران، ٣/١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة حاليّة مفيدة لغاية قبح ما فعلوا، أي: والحال أنّهم ما أُمِروا بما أُمِروا في كتابهم إلّا لأجل أن يعبدوا الله. وقيل: "اللام" بمعنى "أن"، أي: إلّا بأن يعبدوا الله، ويعضده قراءة "إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ".[2]

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصًا له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصةً له تعالى في الدِّين. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إن أريدَ بهما ما في شريعتهم مِن الصلاة والزكاة فالأمرُ ظاهر، وإن أريدَ ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أنّ أمرهم باتّباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما مِن جملتها.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار / بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته. ﴿دِينُ [٢٨٢ظ] ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دِين المِلّة القيّمة. وقُرئ: "الدِّينُ القَيِّمَةُ"[3] على تأويل الدِّين بالمِلّة.

---

١ س – ليس.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١-٥٩٢. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١.

هذا، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ حكايةٌ لِما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام: مِن أنّهم لا ينفكّون مِن دِينهم إلى مبعثه، ويعِدون أن ينفكّوا منه حينئذ، ويتّفقوا على الحقّ.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾... إلى آخره، بيان لإخلافهم الوعدَ، وتعكيسهم الأمرَ، بجَعْلهم ما هو سبب لانفكاكهم مِن دينهم الباطل حسبما وعدوه سببًا لثباتهم عليه وعدمِ انفكاكهم منه. / ومُثِّل ذلك بأن يقول [٣١٣و] الفقير الفاسق لمَن يعِظه: "لا أنفكّ ممّا أنا فيه حتّى أستغنيَ"، فيستغني فيزداد فِسقًا، فيقول له واعظه: "لم تكن منفكًّا عن الفِسق حتّى توسِر، وما عكفتَ على الفسق إلّا بعد اليسار".[٢]

وأنت خبير بأنّ هذا إنّما يتسنّى بعد اللّتيا والتي،[٣] على تقدير أن يُراد بالتفرّق تفرُّقُهم عن الحقّ، بأن يقال: "التفرّق عن الحقّ مستلزمٌ للثبات على الباطل"، فكأنّه قيل: وما أجمعوا على دينهم إلّا مِن بعد ما جاءتهم البيّنة. وأمّا على تقدير أن يُراد به تفرُّقهم فِرقًا فمنهم مَن آمَن، ومنهم مَن أنكر، ومنهم مَن عرف وعاند، كما جوّزه القائل، فلا. فتأمّل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، وذِكرُ المشركين لئلّا يُتوهَّم اختصاص الحُكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدةِ شواهد النبوّة في الكتاب بهم، ومعنى كونهم فيها أنّهم يصيرون إليها يوم القيامة.

---

[١] القول بمعناه في اللباب لابن عادل، ٢٠/٤٣٤.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١.

[٣] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

وإيراد الجملة الاسميّة للإيذان بتحقّق مضمونها لا محالةَ، أو أنّهم فيها الآن إمّا على تنزيل مُلابستهم لِما يُوجِبها منزلة ملابستهم لها، وإمّا على أنّ ما هم فيه مِن الكفر والمعاصي عينُ النار إلّا أنّها ظهرت في هذه النشأة بصور عرضيّة، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقيّة، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٤٩/٩]، وفي سورة الأعراف.[١]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال مِن المستكنّ في الخبر، واشتراكُ الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفيّة، فإنّ جهنّم دركاتٌ وعذابَها ألوانٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بما هم فيه مِن القبائح المذكورة، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخليقة، أي: أعمالًا، وهو الموافق لِما سيأتي في حقّ المؤمنين، فيكون في حيّز التعليل لخلودهم في النار، أو شرُّهم مقامًا ومصيرًا، فيكون تأكيدًا لفظاعة حالهم. وقُرئ بـ"الهمز"[٢] على الأصل.

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثرَ بيان سوء حال الكفرة جريًا على السنّة القرآنيّة مِن شفع الترهيب بالترغيب. [٣١٣ظ] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية مِن الشرف والفضيلة مِن الإيمان والطاعة ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقُرئ: "خِيَارُ البَرِيَّةِ"،[٣] وهو جمع "خيّر"، نحو "جيّد" و"جِيَاد".

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بمقابلة ما لهم مِن الإيمان والطاعات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إن أريدَ بالجنّات الأشجار الملتفّة الأغصان كما هو الظاهر، فجريان الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن أريدَ بها مجموع الأرض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر، وأيًّا ما كان فالمراد جريانها بغير أُخدُودٍ.

---

١ وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]. «منه».

٢ قرأ بها نافع وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٤٠٧/١، ٤٠٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبد الواحد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ متنعِّمين بفنون النِّعم الجسمانيّة والروحانيّة. وفي تقديم مدحِهم بخيريّة البريّة، وذِكرِ الجزاء المؤذِن بكون ما منحوه في مقابلة ما وُصفوا به، وبيانِ كونه مِن عنده تعالى، والتعرّضِ لعنوان الربوبيّة المنبئة عن التربية، والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم، وجمعِ الجنّات وتقييدها بالإضافة، وبما يزيدها نعيمًا، وتأكيدِ الخُلودِ بالأبود، مِن الدلالة[1] على غاية حُسن حالهم ما لا يخفى.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ استئناف مبيِّن لِما يتفضَّل عليهم زيادةً على ما ذُكر مِن أجزيَة أعمالِهم. ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ حيث بلغوا مِن المطالب قاصيتَها، ومَلَكوا مِن المآرب ناصيتَها، وأتيحَ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الجزاء والرضوان ﴿لِمَنۡ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ فإنّ الخشية التي هي مِن خصائص العلماء بشئون الله عزّ وجلّ مناطٌ لجميع الكمالات العِلميّة والعمليّة المستتبِعة للسعادة الدينيّة والدنيويّة. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المعربة عن المالكيّة والتربية للإشعار بعِلّة الخشية والتحذير مِن الاغترار بالتربية.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ كان يوم القيامة مع خير البريّة مساءً ومقيلًا».[2]

---

١ السياق: وفي تقديم... ما لايخفى...

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٤/٣٠ (البينة، ١/٩٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٨/٤ (البينة، ١/٩٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٩٨

سورة ﴿لَم يَكُن﴾

مكية أو مدنية، ثمانُ أو تسعُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿لَم يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾ ـ للبيان ـ ﴿أهلِ الكِتابِ والمُشرِكِينَ﴾ أي: عَبَدةِ الأصنام، عطفٌ على «أهل»، ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبرُ «يكن» أي: زائلين عمّا هم عليه ﴿حَتَّى تأتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿البَيِّنَةُ﴾ أي: الحُجّة الواضحة، ٢ ـ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾: بدلٌ من: البيّنة ـ وهو النبيّ محمدٌ ـ ﴿يَتلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ من الباطل، ٣ ـ ﴿فِيها كُتُبٌ﴾: أحكام مكتوبة ﴿قَيِّمةٌ﴾: مستقيمة، أي: يتلو مضمونَ ذلك ـ وهو القُرآن ـ فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

٤ ـ ﴿وما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ في الإيمان به ﷺ ﴿إلاّ مِن بَعدِ ما جاءَتهُمُ البَيِّنَةُ﴾.........

سورَة ﴿لَم يَكُن﴾

وفي نُسخة: سُورَةُ البَيِّنَة

قولُهُ: (عَمَّا هُم عَلَيهِ) من دينِهم، أو من الوَعدِ باتِّباعِ الحقِّ إذا جاءَهُم الرَّسولُ.

قولُهُ: (الوَاضِحَةُ) أو المبيِّنَةُ للحقِّ.

قولُهُ: (وهوَ النَّبيُّ) أو القُرآنُ.

قولُهُ: (مِنَ البَاطِلِ) أو لأنَّها لا يمسُّهما إلا المطهَّرونَ.

قولُهُ: (مُستَقِيمَةٌ) ناطقَةٌ بالحقِّ.

قولُهُ: (فَمِنهُم) أي: من أهلِ الكِتابِ والمشرِكينَ، أو من المتلوِّ عليهِم.

قولُهُ: (مِنَ الإِيمَانِ) وفي نُسخةٍ: «في»، وهو الظَّاهرُ، والمعنى: ما تفرَّقوا عمَّا كانوا عليهِ بأن آمَنَ بعضُهُم، أو عن وعدِهِم بالإصرارِ على الكُفرِ.

أي: هو ﷺ أو القرآنُ الجائي به مُعجزةً له، وقبل مجيئه ﷺ كانوا مُجتمعين على الإيمان به إذا جاء، فحسَده مَن كفر به منهم، ٥ ـ ﴿وما أُمِرُوا﴾ في كتابَيهم التوراةِ والإنجيل ﴿إلاَّ لِيَعبُدُوا اللهَ﴾ أي: أن يعبدوه ـ فحُذفت «أن» وزِيدت اللام ـ ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿حُنَفَاءَ﴾: مستقيمين على دين إبراهيمَ، ودين محمدٍ إذا جاء، فكيف كفروا به؟ ﴿ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ. وذلِكَ دِينُ﴾ المِلَّةِ ﴿القَيِّمَةِ﴾: المستقيمة.

٦ ـ ٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها﴾: حالٌ مُقدَّرة، أي: مُقدَّرًا خلودُهم فيها من الله ـ تعالى ـ ﴿أُولئِكَ هُم شَرُّ البَرِيَّةِ. إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُم خَيرُ البَرِيَّةِ﴾: الخليقة، ٨ ـ ﴿جَزاؤُهُم عِندَ رَبِّهِم جَنّاتُ عَدنٍ﴾: إقامة، ﴿تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا، رَضِيَ اللهُ عَنهُم﴾ بطاعته ﴿ورَضُوا عَنهُ﴾ بثوابه. ﴿ذلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ﴾: خاف عِقابه فانتهى عن معصيته.

قولُهُ: (فحَسَدَه) فيكونُ كقولِهِ: ﴿وكَانُوا من قَبلُ يَستَفتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، وإفرادُ أهلِ الكِتابِ بعدَ الجمعِ بينهم وبينَ المشركينَ؛ للدَّلالَةِ على شناعَةِ حالِهِم، وأنَّهم لمَّا تفرَّقوا مع علمِهِم كان غيرُهُم بذلك أولى.

قولُهُ: (أَن يَعبُدُوهُ) أي: بعبادَتِه.

قولُهُ: (مُستَقِيمِينَ) مائلينَ عن الأديانِ الزَّائغَةِ.

قولُهُ: (المِلَّةِ) وإنَّما احتيجَ إلى تقديرِها رعايَةً لمذهبِ البصريِّينَ(١).

قولُهُ: (الخَلِيقَةِ) الأولى تفسيرُ الموضِعِ الأوَّل، وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوانَ بالهَمزِ على الأصلِ في الموضِعَين(٢).

قولُهُ: (بطَاعَتِهِ) أو بفَضلِهِ.

قولُهُ: (بثَوَابِهِ) أو بقضائِهِ.

قولُهُ: (خَافَ عِقَابَهُ) الخَشيَة: خوفٌ مع التَّعظيم.

قولُهُ: (فانتَهَى عَن مَعصِيَتِه) وامتثَلَ طاعَتَهُ، أو الثَّاني مُندرِجٌ في الأوَّلِ، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ الخشيَةَ التي لا تُورِثُ الانتِهاءَ عن المعصيَةِ غيرُ مُعتبرَةٍ، بل هي أُمنيَّةٌ وغرَّةٌ، والله تعالى أعلَمُ.

* * *

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٩).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٢٤).

سورة البينة

وتسمَّى: سورةَ القيامة، وسورةَ البلد، وسورةَ المنفكِّين، وسورة البَرِيَّة، وسورة لم يكن.

قال في «البحر»: مكيةٌ في قول الجمهور، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار: مدنية؛ قاله ابن عطية. وفي كتاب «التحرير»: مدنية، وهو قول الجمهور. ورَوَى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية[1]، واختاره يحيى بن سلام[2]. انتهى.

وقال ابن الفرس[3]: الأشهر أنها مكية. ورواه ابن مردويه[4] عن عائشة.

وجزم ابن كثير[5] بأنها مدنيةٌ، واستَدَلَّ على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد وابن قانع في «معجم الصحابة» والطبرانيُّ وابن مردويه عن أبي حبَّةَ[6] البدريِّ قال: لَمَّا نزلت: (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ) إلى آخرها قال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، إنَّ ربك يأمرك أن تُقْرِئها أُبيًّا. فقال النبيُّ ﷺ لأُبيٍّ رضي الله عنه: «إنَّ جبريل عليه السلام أمرني أن أُقْرِئكَ هذه السورةَ» فقال أبيٌّ: أَوَقَد ذُكرتُ ثَمَّ يا رسول الله؟! قال: «نعم»، فبكى[7]. وهذا هو الأصح.

(١) جاء في هامش الأصل: وروى ابن مردويه عنه أنها مدنية.

(٢) البحر ٨/ ٤٩٨، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧.

(٣) كما في الإتقان ١/ ٤١.

(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧.

(٥) عند تفسير هذه السورة، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإتقان ١/ ٤١.

(٦) في الأصل و(م): خيثمة، وهو تصحيف، وأبو حبة اختلف في اسمه، ينظر توضيح المشتبه ٣/ ٨٠.

(٧) مسند أحمد (١٦٠٠٠)، ومعجم الصحابة ٣/ ٤٨، والمعجم الكبير ٢٢/ (٨٢٣). وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩): (٢٤٦).

وآيُها تسعٌ في البصري وثمان في غيره[١].

وجاء في فضلها ما أخرجه أبو موسى المدينيُّ[٢] في «المعرفة» عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن نُظَير[٣] المزني أو المدني، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقول: أبشر عبدي، فَوَعِزَّتي لا أنساك[٤] على حالٍ من أحوال الدنيا والآخرة، ولأُمكِّنَنَّ لك في الجنة حتى ترضى»[٥].

ووَجْهُ مناسبتها لِمَا قبلها: أنَّ قوله تعالى فيها: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ﴾ إلخ كالتعليل لإنزال القرآن، كأنه قيل: إنَّا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكِّين عن كفرهم حتى يأتيهم رسولٌ يتلو صحفاً مطهَّرةً وهي ذلك المنزل، فلا تغفل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى، وإيرادُهم بذلك العنوان؛ قيل: لإعظام شناعة كفرهم. وقيل: للإشعار بعلَّةِ ما نُسب إليهم من الوعد باتِّباع الحق، فإنَّ مناط ذلك وجدانُهم له في كتابهم، وهو مبنيٌّ على وجهٍ يأتي إن شاء الله تعالى في الآية بعدُ. وإيرادُ الصلة فعلاً لِمَا أنَّ كفرهم حادثٌ بعد أنبيائهم عليهم السلام بالإلحاد في صفات الله عز وجل.

و«من» للتبعيض كما قال عَلَمُ الهدى الشيخُ أبو منصور الماتُريديُّ في «التأويلات»[٦] لا للتبيين؛ لأنَّ منهم مَن لم يكفر بعدَ نبيِّه، وكان على الاعتقاد

---

(١) في هامش الأصل: اختلافها ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بصري.

(٢) كما في أسد الغابة ٥/ ٣٢٥، وتفسير ابن كثير، والإصابة ١٠/ ١٥٦، والدر المنثور ٦/ ٣٧٧، وعنه نقل المصنف.

(٣) في الأصل و(م) والدر: مطر، والمثبت من باقي المصادر، وهو الصواب.

(٤) في الأصل و(م): أسألك، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٥) حديث ضعيف، في إسناده عبد الله بن سلمة، وهو واهي الحديث كما ذكر الحافظ في الإصابة ١٠/ ١٥٧.

(٦) ٥/ ٤٩٩.

الحقِّ حتى تَوفَّاه الله تعالى، وعُدَّ من ذلك الملكانية من النصارى؛ فقيل: إنهم كانوا على الحقِّ قبل بعثة رسول الله ﷺ، والتبيينُ يقتضي كفرَ جميعهم قبل البعث، والظاهرُ خلافُه.

وأيِّد إرادةُ التبعيض بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنَّ المراد بأهل الكتاب اليهودُ الذين كانوا بأطراف المدينة من بني قريظة والنضير وبني قينقاع.

وقال بعضٌ: لا نسلِّم أنَّ التبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث؛ لجوازِ أن يكون التعبير عنهم بـ «الذين كفروا» باعتبارِ حالِهم بعد البعثة، كأنه قيل: لم يكن هؤلاء الكفرةُ، وبُيِّنوا بأهل الكتاب ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهم مَن اعتقدوا لله سبحانه شريكاً صنماً أو غيرَه، وخصَّهم بعضٌ بعَبَدةِ الأصنام لأنَّ مشركي العرب الذين بمكة والمدينة وما حولها كانوا كذلك، وهم المقصودون هنا على ما روي عن الحبر.

وأيًّا ما كان فالعطفُ على «أهل الكتاب»، ولا يلزم على التبعيض أن لا يكون بعضهم كافرين ليجب العدولُ عنه للتبيين؛ لأنهم بعضٌ من المجموع كما أفاده بعض الأجلَّة.

واحتمالُ أن يراد بالمشركين أهلُ الكتاب، وشركُهم لقولهم: المسيح ابن الله، وعزيرٌ ابن الله، تَعالَى الله عن ذلك علوًّا كبيراً، والعطفُ لمغايرة العنوان = ليس بشيء.

وقرئ: «والمشركون» بالرفع عطفاً على الموصول(١). وحَمْلُ قراءة الجمهور على ذلك، واعتبارُ أنَّ الجرَّ للجوار، لا يَخْفَى حالُه.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من ضمير «كفروا»، وقولُه تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبر «يكن». والانفكاكُ في الأصل: افتراقُ الأمور الملتحمة بنوعِ مزايلةٍ، وأريدَ به المفارقةُ لِمَا كانوا عليه مما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

فالوصف اسمُ فاعلٍ من «انفكَّ» التامةِ دون الناقصةِ الداخلةِ على المبتدأ

(١) تفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠٩ عن الأعمش وإبراهيم، وهي في البحر ٨/ ٤٩٨ دون نسبة.

والخبر، وزعم بعض النحاة أنه وصفٌ منها والخبرُ محذوف، أي: واعِدينَ اتِّباعَ الحقِّ، أو نحوه. وتعقِّب ـ مع كونه خلاف الظاهر ـ بأنَّ خبر «كان» وأخواتها لا يجوز حذفه في السعة لا اقتصاراً ولا اختصاراً، وحين ليس مجيرٌ ـ أي: في الدنيا ـ ضرورةٌ[1].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ متعلِّقٌ بـ «منفكِّين»، و«البينة» صفةٌ اسم الفاعل، أي: المبينُ للحقِّ، أو هي بمعناها المعروف: وهو الحجةُ المثبِتة للمدَّعى، ويراد بها المعجِزُ.

وعلى الوجهين فقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بدلٌ منها بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو خبرٌ لمقدَّرٍ، أي: هي رسولٌ، وتنوينُه للتفخيم، والمراد به نبيُّنا ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة له مفيدٌ للفخامة الإضافية، فهو مؤكِّدٌ لِمَا أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صفةٌ أخرى له، أو حالٌ من الضمير في صفته الأولى كما أن قوله سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ «صحفاً» أو حالٌ من الضمير في صفتها الأولى، أعني «مطهَّرة»، ويجوز أن يكون الصفةُ أو الحال هنا الجارَّ والمجرورَ فقط، و«كُتُبٌ» مرتفعاً على الفاعلية.

وإطلاق البينة عليه عليه الصلاة والسلام على المعنى الأول ظاهرٌ، وعلى المعنى الأخير باعتبارِ أن أخلاقه وصفاته ﷺ كانت بالغةً حدَّ الإعجاز كما قال الغزالي في «المنقذ من الضلال»[2]، وأشار إليه البوصيريُّ بقوله:

كفاك بالعلم في الأميِّ معجزةً ... في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتْمِ

ويُعلم منه حكمةُ جَعْلِه عليه الصلاة والسلام يتيماً. أو باعتبارِ كثرةِ معجزاته ﷺ غير ما ذكر وظهورِها.

---

(١) يشير إلى البيت الذي سلف عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الكهف، وهو:

لهفي عليك كلهفةٍ من خائف ... يبغي جوارك حين ليس مُجيرُ

(٢) ينظر ما ورد فيه ص١٦٤.

وجوِّز أن يراد بالبيِّنة القرآنُ لأنه مبينٌ للحق، أو معجزٌ مثبِتٌ للمدَّعى، وروي ذلك عن قتادة وابن زيد، و«رسول» عليه قيل: بدلُ اشتمالٍ، أو بدلُ كلٍّ من كلٍّ أيضاً بتقدير مضافٍ، أي: بينةٌ أو وحيُ أو معجزُ أو كتابُ رسولٍ، أو هو خبرُ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هي رسولٌ، ويقدَّر معه مضافٌ كما سمعتَ.

وجوِّز أن يكون «رسول» مبتدأً لوَصْفِه، وخبرُه جملةُ «يتلو» إلخ، وجملةُ المبتدأ وخبرِه مفسِّرةٌ للبيِّنة، وقيل: اعتراضٌ لمدحها. وقيل: صفةٌ لها مراداً بها القرآنُ، ويراد بالصحف المطهَّرة البينة[1]، وقد وُضعت موضعَ ضميرها فكانت الرابطَ.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله: «رسولاً» بالنصب على الحالية من «البينة»[2].

والصحف جمعُ صحيفةٍ، وكذا الصِّحاف: القراطيس التي يُكتب فيها، وأصلها: المبسوطُ من الشيء، والمراد بتطهيرها: تنزيهُها عن الباطل على سبيل الاستعارة المصرِّحة، ويجوز أن يكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ. أو: تطهيرُ مَن يمسُّها على التجوُّز في النسبة، فكأنه قيل: صحفاً لا يمسُّها إلا المطهَّرون.

والمراد بالكتب: المكتوبات، وبالقيِّمة: المستقيمة، واستقامتُها نُطقُها بالحق. وفي «التيسير»: هي كتب الأنبياء عليهم السلام، والقرآنُ مصدِّقٌ لها، فكأنها فيه.

ووَصْفُه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة ـ بناءً على المشهور من أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ الكتاب، كما أنه ﷺ لم يكن يكتب[3] ـ من باب التجوُّز في النسبة إلى المفعول؛ لأنه ﷺ لَمَّا قرأ ما فيها فكأنه قرأها. وقيل: على تقدير مضافٍ، أي: مثلَ صحفٍ.

(١) في هامش الأصل: قال الراغب: قيل: جعل القرآن صحفاً فيها كتبٌ من أجل تضمُّنه لزيادةٍ على ما في كتب الله تعالى المتقدمة.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، والكشاف ٤/ ٢٧٤، والبحر ٨/ ٤٩٨.

(٣) في هامش الأصل: مقابِلُه قولُ أنه كان يقرأ ولا يكتب، وقول أنه عليه الصلاة والسلام كان كِلا الأمرين له في آخر الأمر.

وقيل: في ضمير «يتلو» استعارةٌ مكنيةٌ بتشبيهه عليه الصلاة والسلام ـ لتلاوته مِثْلَ ما فيها ـ بتاليها، أو الصحفُ مجازٌ عما فيها بعلاقة الحلول، ففي ضمير «فيها» استخدامٌ[١]؛ لعَوْده على الصحف بالمعنى الحقيقي.

وقيل: المراد بالرسول جبريل عليه السلام، وبالصحف صحفُ الملائكة عليهم السلام المنتَسخةُ من اللوح المحفوظ، وبتطهيرها ما سبق، والمراد بتلاوته عليه الصلاة والسلام إياها ظاهرٌ، وجَعْلُها مجازاً عن وَحْيِه إياها غيرُ وجيهٍ.

والأولى حَمْلُ الرسول على النبيِّ ﷺ، وهو المرويُّ عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما.

وقد اختلفوا في المعنى المراد بالآية اختلافاً كثيراً، حتى قال الواحديُّ في كتاب «البسيط»[٢]: إنها من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً. وبُيِّن ذلك[٣] ـ بناءً على أنَّ الكفر وصفٌ لكلٍّ من الفريقين قبل البعثة ـ بأنَّ الظاهر أنَّ المعنى: لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكِّين عمَّا هم عليه من الكفر حتى يأتيهم الرسول ﷺ، و«حتى» لانتهاء الغاية، فتقتضي أنهم انفكُّوا عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ، وهو خلافُ الواقع، ويناقضُه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فإنه ظاهرٌ في أنَّ كفرهم قد زاد عند ذلك.

فقال جار الله: كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث: لا ننفكُّ عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث الله تعالى النبيَّ الموعود الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، وهو محمدٌ ﷺ، فحَكَى الله تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ، يعني أنهم كانوا يَعِدُون اجتماعَ الكلمة والاتِّفاقَ على الحقِّ إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرَّقهم عن الحق وأقرَّهم على الكفر إلا مجيئُه، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يَعِظُه: لستُ بمنفكٍّ مما أنا فيه حتى يرزقني الله

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) كما في تفسير الرازي ٣٢/ ٣٨، وقاله أيضاً في الوسيط ٤/ ٥٣٩.

(٣) المبيِّن هو الرازي في تفسيره ٣٢/ ٣٨.

تعالى الغِنَى. فيرزقُه الله عز وجل ذلك فيزدادُ فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكًّا عن الفسق حتى تُوْسِرَ، وما غمستَ رأسك في الفسق إلا بعد اليسار. يذكِّرُه ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً(١).

وحاصله: أنَّ الأول من باب الحكاية لزَعْمِهم، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ إلزامٌ عليهم؛ حَكَى الله تعالى كلامهم على سبيل التوبيخ والتعيير، فقال: هذا هو الثمرةُ، وظاهره أنه أراد بتفرُّقهم: تفرُّقَهم عن الحق، وحُمِلَ على الثبات على الكفر والباطل لاستلزامه إياه. وعدمُ التعرُّضِ للمشركين في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ لعِلْمِ حالهم من حال الذين أوتوا الكتاب بالأَوْلَى.

وقيل(٢) ـ وهو قريبٌ من ذاك من وجه، وفيه إيضاحٌ له من وجه ـ: أي: لم يكونوا منفكِّين عما كانوا عليه من الوعد باتِّباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتاً للاجتماع والاتفاق، فجعلوه(٣) ميقاتاً للانفكاك والافتراق، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ. وفي التعبير بـ «منفكين» إشارةٌ إلى وكادة وعدهم، وهو من أهل الكتاب مشهورٌ، حتى إنهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبيِّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: وقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرمَ. ومن المشركين لعله وقع من متأخِّريهم بعدما شاع [ذلك] من أهل الكتاب واعتقدوا صحته مما شاهدوا ـ مثلاً ـ من بعض مَن يوثَقُ به بينهم من قومهم كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد كان يتطلَّب نبيًّا من العرب، ويقول: قد أظلَّ زمانُه، وأنه من قريش، بل من بني هاشم، بل من بني عبد المطلب. ويشهد لذلك أنهم قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام سمَّى منهم غيرُ واحدٍ ولدَه بمحمد رجاء أن يكون النبيَّ المبعوث، والله أعلم حيث يجعل رسالته. والتعبيرُ عن إتيانه بصيغة المضارع باعتبار حال المحكيِّ لا باعتبار حال الحكاية كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٧٤.

(٢) هو قول أبي السعود في تفسيره ٩/ ١٨٤، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) في الأصل و(م): فاجعلوه، والمثبت من تفسير أبي السعود، وهو الصواب.

ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: تَلَتْ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ كلامٌ مسوقٌ لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصةً ببيانِ أنَّ ما نُسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ في الأمر، بل بعد وضوح الحقِّ وتبيُّنِ الحال وانقطاعِ الأعذار بالكلِّية، وهو السرُّ في وَصْفِهم بإيتاء الكتاب المُنْبِئ عن كمالِ تمكُّنهم من مطالعته والإحاطةِ بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبارِ التي من جملتها ما يتعلَّق بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وصحةِ بعثته، بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جارٍ مجرى اسم الجنس للطائفتين، ولَمَّا كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأي المذكور في حكم فريقٍ واحدٍ عبَّر عمَّا صَدَرَ عنهم[1] عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك، وعند بيانِ كيفيةِ وقوعه بالتفرُّق، اعتباراً لاستقلال كلٍّ من فريقي أهل الكتاب، وإيذاناً بأنَّ انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأي آخَرَ، بل بطريق الاختلاف القديم.

وتعقِّب التقريران بأنه ليس في الكلام ما يدلُّ على أنه حكايةٌ، ولا على إرادة: منفكِّين عن الوعد باتِّباع الحق.

وقال القاضي عبد الجبار: المعنى: لم يكن الذين كفروا منفكِّين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة. وتعقَّبه الإمام: بأنَّ تفسير لفظِ «حتى» بما ذُكر ليس من اللغة في شيء[2].

ولعله أراد أنَّ المراد استمرارُ النفي، وأنَّ في الكلام حذفاً، أي: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم في وقتٍ من الأوقات حتى وقت أن تأتيهم البينةُ، إلا أنه عبر بما ذكر لأنه أَخْصَرُ، وفيه أيضاً ما لا يخفى.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن ذكر الرسول ﷺ بالمناقب والفضائل إلى أن أتاهم، فحينئذٍ تفرَّقوا فيه وقال كلٌّ منهم فيه عليه الصلاة والسلام قولاً زُوراً. وتعقِّب بأنه لا دلالة على إرادة ما قدِّر متعلَّقَ الانفكاك.

---

(١) في (م): منهم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٢) تفسير الرازي ٣٢/٣٩.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ﷺ، فلما جاءهم تفرَّقوا فمنهم مَن آمن ومنهم مَن أصرَّ على كفره، ويكفي ذلك في العمل بموجب «حتى».

وتعقِّب بأنَّ ظاهر «وما تفرَّق» إلخ ذمٌّ لجميعهم وتشنيعٌ عليهم، ويؤيِّده قوله سبحانه بعدُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ، ويَبعُدُ ذلك على حمل التفرُّق على إيمانِ بعضٍ وإصرارِ بعضٍ.

وقيل: المعنى: لم يكونوا منفكِّين عن كفرهم بأن يتردَّدوا فيه، بل كانوا جازمين به معتقدين حقِّيته إلى أن أتاهم رسول الله ﷺ، فعند ذلك اضطربت خواطرُهم وأفكارهم، وتشكَّك كلٌّ في دينه ومقالته. وفيه ما لا يخفى.

وقيل: معنى «منفكين»: هالكين، من قولهم: انفك صَلَا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم، والمعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقريبٌ منه معنًى ما قيل: لم يكونوا منفكِّين عن الحياة بأن يموتوا ويهلكوا حتى تأتيهم البينة. وهو كما ترى.

وقيل: المراد أنهم لم ينفكوا عن دينهم حقيقةً إلى مجيء الرسول التالي للصحف المبيِّنةِ نَسْخَه وبطلانه، ولَمَّا جاء وتبيَّن ذلك انفكُّوا عنه حقيقةً وإن بقُوا عليه صورةً. وفيه ما فيه.

وقال أبو حيان: الظاهر أنَّ المعنى: لم يكونوا منفكِّين، أي: منفصلاً بعضُهم عن بعضٍ، بل كان كلٌّ منهم مُقِرًّا الآخَرَ على ما هو مما اختاره لنفسه، هذا من اعتقاده بشريعته، وهذا من اعتقاده بأصنامه، وحاصلُه أنه اتصلت مودَّتُهم واجتمعت كلمتهم إلى أنْ أتتهم البينة، «وما تفرق الذين أوتوا» أي: من المشركين، وانفصل بعضُهم من بعض، فقال كلٌّ ما يدلُّ عنده على صحة قوله، «إلا من بعد ما جاءتهم البينة» وكان يقتضي عند مجيئها أن يجتمعوا على اتِّباعها[1].

(١) البحر ٨/ ٤٩٨.

ولا يَخْفَى أن قوله: بل كان كلٌّ منهم.. إلخ، في حيِّز المنع، وأيضاً حَمْلُ «وما تفرَّق» على ما حَمَلَه عليه غيرُ ظاهرٍ.

وقال ابن عطية: هاهنا وجهٌ بارعُ المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القومُ منفكِّين من أمر الله تعالى وقدرتِه ونظرِه سبحانه حتى يبعث عزَّ وجلَّ إليهم رسولاً منذراً يُقيم تعالى عليهم به الحجةَ، ويتمُّ على مَن آمن به النعمة، فكأنه قال: ما كانوا ليُتْركوا سدًى، ولهذا نظائرُ في كتاب الله جلَّ جلاله[1].

هذا ما ظفرنا[2] به سؤالاً وجواباً، وجرحاً وتعديلاً.

ثم إنِّي أقول: ما تقدَّم في تقرير الإشكال مبنيٌّ على مذهب القائلين بمفهوم الغاية، وهم أكثر الفقهاء، وجماعةٌ من المتكلِّمين كالقاضي أبي بكر والقاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري وغيرهم، دون مذهب الغير القائلين به، وهم أصحاب الإمام أبي حنيفة وجماعةٌ من الفقهاء والمتكلِّمين، واختاره الآمدي، واستدلَّ عليه بما استدلَّ، وردَّ ما يعارضه من أدلة المخالف[3].

وعليه يمكن أن يقال: إنه سبحانه وتعالى بيَّن أولاً حالَ الذين كفروا من الفريقين إلى وقت إتيان الرسول ﷺ بقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: عمَّا هم عليه من الدِّين حَسبَ اعتقادهم فيه إلى أن يأتيهم الرسول. ولَمَّا لم يتعرَّض في ذلك على ذلك المذهب لحالهم بعد إتيان الرسول عليه الصلاة والسلام بيَّنه سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، أي: وما تفرَّقوا فعرف بعضٌ منهم الحقَّ وآمَنَ، وعرفه بعضٌ آخرُ منهم وعانَدَ فلم يؤمن، في وقتٍ من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم البينةُ، وطَوَى سبحانه ذِكْرَ حال المشركين لعلمه بالأَوْلى من حالهم، ثم إنه تعالى ذكر بعدُ حالَ كلٍّ من الفريقين المؤمنِ والكافر وما له في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلخ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٥٠٧.

(٢) في الأصل: ظفرت.

(٣) الإحكام للآمدي ٣/١٠١-١٠٣.

والذي أميلُ إليه مما تقدَّم كونَ الانفكاك عن الوعد باتِّباع الحق، ولعل القرينة على اعتباره حالية.

ويحتمل نحواً آخر من التوجيه، وذلك بأنْ يُجعل الكلام من باب الإعمال، فيقال: إن «منفكِّين» يقتضي متعلِّقاً هو المنفكُّ عنه، و«تأتيهم» يقتضي فاعلاً، وليس في الكلام سوى «البينة»، فكلٌّ منهما يقتضيه، فأُعْمِلَ فيه «تأتيهم» وحُذف معمول «منفكِّين» لدلالته عليه، فكأنه قيل: لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكِّين عن البينة حتى تأتيهم البينةُ، وحيث كان المراد بالبينة الرسولَ كان الكلامُ في قوةِ: لم يكونوا منفكِّين عن الرسول حتى يأتيهم، ويراد بعدم الانفكاك عن الرسول حيث لم يكن موجوداً إذ ذاك عدمُ الانفكاك عن ذكره والوعدِ باتِّباعه، ويكون باقي الكلام في الآية على نحو ما سبق على تقدير إرادة: منفكِّين عما كانوا عليه من الوعد باتِّباع الحق.

وإن شئتَ قلتَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ: إنه على معنى: وما تفرق الذين أوتوا الكتاب عن الرسول وما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلا من بعد ما جاءهم.

فتأمَّل جميعَ ما أتيناك به، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة حالية مفيدةٌ لغاية قبح ما فعلوا، والمراد بالأمر مطلقُ التكليف، ومتعلِّقه محذوفٌ، واللام للتعليل، والكلام في تعليلِ أفعاله تعالى شهيرٌ، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، أي: والحالُ أنهم ما كلِّفوا في كتابهم بما كلِّفوا به لشيء من الأشياء إلا لأَجْلِ عبادة الله تعالى(١).

وقال الفرَّاء: العرب تجعل اللام موضع «أنْ» في الأمر، كـ: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١] وكذا في الإرادة كـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٦] فهي هنا بمعنى «أنْ»، أي: إلا بأنْ يعبدوا الله، وأيّد بقراءة عبد الله: «إلا أن يعبدوا»(٢) فيكون عبادة الله تعالى هي المأمور بها، والأمرُ على ظاهره.

---

(١) جاء في هامش الأصل: ومثله ما قيل من أن اللام زائدة، فلا تغفل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢.

والأول هو الأظهر، وعليه قال علم الهدى أبو منصور الماتريدي: هذه الآية عُلم منها معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: إلا لأمرهم بالعبادة فيُعْلَمُ المطيع من العاصي(١). وهو كما قال الشهاب كلامٌ حسنٌ دقيق(٢).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: جاعلينَ دينَهم خالصاً له تعالى فلا يُشْرِكون به عز وجل، ف «الدِّين» مفعولٌ لـ «مخلصين»، وجوِّز أن يكون نصباً على إسقاط الخافض ومفعولُ «مخلصين» محذوف، أي: جاعلين أنفسهم خالصةً له تعالى في الدين. وقراءة الحسن: «مخلَصين» بفتح اللام(٣)، وحينئذٍ يتعيَّن هذا الوجهُ في «الدين» ولا يتسنَّى الأول، نعم جوِّز أن يكون نصباً على المصدر والعاملُ «ليعبدوا»، أي: ليَدِينوا اللهَ تعالى بالعبادة الدينَ.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام، وفيه من تأكيد الإخلاص ما فيه، فالحَنَفُ: الميلُ إلى الاستقامة، وسمِّي مائلُ الرِّجْلِ إلى الاعوجاج أحنفَ للتفاؤل، أو مجازٌ مرسلٌ بمرتبتين.

وعن ابن عباس تفسير «حنفاء» هنا بـ: حُجَّاجاً.

وعن قتادة بـ: مختتنين محرِّمين لنكاح الأمِّ والمحارم.

وعن أبي قِلَابةَ بـ: مؤمنين بجميع الرسل عليهم السلام.

وعن مجاهد بـ: متَّبعين دينَ إبراهيم عليه السلام.

وعن الربيع بن أنس بـ: مستقبلين القبلة بالصلاة.

وعن بعضٍ بـ: جامعينَ كلَّ الدِّين.

وحالُ الأقوال لا يَخْفَى.

---

(١) تأويلات أهل السنة ٥/ ٥٠٠-٥٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٨٦.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٣٨٦.
(٣) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٤٩٩.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إنْ أريدَ بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة فالأمر بهما ظاهرٌ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أَمْرِهم بهما في كتابهم أنَّ أمرهم باتِّباع شريعتنا أمرٌ لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وما فيه من البعد للإشعار بعلوِّ رتبته وبُعْدِ منزلته في الشرف.

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الكتبِ القيِّمة، فـ «أل» للعهد إشارة إلى ما تقدم في قوله تعالى: (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) وإليه ذهب محمد بن الأشعث الطالقانيُّ[١].

وقال الزجَّاج أي: الأمة القيِّمة، أي: المستقيمة[٢].

وقال غير واحد: أي: الملَّةِ القيِّمة، والتغايرُ الاعتباريُّ بين الدِّين والملَّة يصحِّح الإضافة.

وبعضُهم لم يقدِّر موصوفاً، ويجعلُ «القيِّمة» بمعنى الملَّة. وقيل: أي: الحجج القيِّمة.

وقرأ عبد الله ﷺ: «الدِّين القيِّمة»[٣] فقيل: التأنيثُ على تأويل الدِّين بالملَّة. وقيل: الهاء للمبالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٤] قيل: بيانٌ لحال الفريقين في الآخرة بعد بيانِ حالهم في الدنيا، وذكر «المشركين» لئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحكم بأهل الكتاب حَسبَ اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب

---

(١) كما في تفسير الثعلبي ١٠/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، واسمه كما ذكر الثعلبي: محمد بن محمد بن الأشعث، أبو سهل، ولم نقف له على ترجمة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٠، وفيه: أي: وذلك دين الأمة القيمة بالحق، فيكون ذلك دين الملة المستقيمة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣، والبحر ٨/ ٤٩٩.

(٤) جاء في هامش الأصل: جوز عطف «المشركين» هنا على الموصول، والظاهر عطفه على «أهل الكتاب».

بهم، فالمراد بهؤلاء الذين كفروا هم المتقدمون في صدر السورة، وفي ذلك احتمالٌ أشرنا إليه فلا تغفل.

ومعنى كونهم في نار جهنم: أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، لكنْ لتحقُّق ذلك لم يصرَّح به وجيء بالجملة اسميةً، أو يقدَّر متعلَّق الجارِّ بمعنى المستقبل، أو أنهم فيها الآن على إطلاق نار جهنم على ما يوجبها من الكفر مجازاً مرسلاً بإطلاق اسم المسبَّب على السبب، وجوِّزت الاستعارة.

وقيل: إن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عينُ النار، إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورةٍ عرضيةٍ، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهرُ بصورتها الحقيقية، وقد مرَّ نظيره غيرَ مرةٍ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ من المستكنِّ في الخبر، واشتراكُ الفريقين في دخول النار بطريق الخلود لا ينافي تفاوتَ عذابهما في الكيفية، فإنَّ جهنم ـ والعياذُ بالله تعالى ـ دركاتٌ، وعذابُها ألوان، فيُعذَّب أهل الكتاب في دركٍ منها نوعاً من العذاب، والمشركون في دركٍ أسفلَ منه بعذابٍ أشدَّ؛ لأن كفرهم أشدُّ من كفر أهل الكتاب.

وكونُ أهل الكتاب كفروا بالرسول ﷺ مع علمهم بنعوته الشريفة وصحةِ رسالته من كتابهم، ولم يكن للمشركين علمٌ بذلك كعلمهم، لا يوجب كونَ عذابهم أشدَّ من عذاب المشركين ولا مساوياً له، فإنَّ الشرك ظلم عظيم وقد انضمَّ إليه من أنواع الكفر في المشركين مما ليس عند أهل الكتاب.

وقد استُدلَّ بالآية على خلود الكفار مطلقاً في النار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة، وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك البُعَداءُ المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: الخليقة. وقيل: أي: البشر.

والمراد: قيل: هم شرُّ البرية أعمالاً، فتكون الجملة في حيِّز التعليل لخلودهم في النار. وقيل: شرُّها مقاماً ومصيراً، فتكون تأكيداً لفظاعة حالهم. ورجِّح الأول بأنه الموافقُ لِمَا سيأتي إن شاء الله تعالى في حقِّ المؤمنين.

وأيًا ما كان فالعمومُ ـ على ما قيل ـ مشكلٌ؛ فإنَّ إبليس وجنودَه شرٌّ منهم أعمالاً ومقاماً، وكذا المشركون المنافقون، حيث ضَمُّوا إلى الشرك النفاقَ، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال بعضٌ: لا يبعد أن يكون في كفار الأمم مَن هو شرٌّ منهم كفرعون وعاقر الناقة. وأجاب بأن المراد بـ «البَرِيَّة»: المعاصرون لهم. ولا يَخْفَى أنه يبقى معه الإشكالُ بإبليس ونحوه.

وأُجيبَ بأن ذلك إذا كان الحصر حقيقيًا، وأمَّا إذا كان إضافيًا بالنسبة إلى المؤمنين بحسب زعمهم فلا إشكالَ؛ إذ يكون المعنى: أولئك هم شرُّ البرية لا غيرُهم من المؤمنين كما يزعمون قالاً أو حالاً.

وقيل: يراد بـ «البرية»: البشر، ويراد بشرِّيتهم: شرِّيتُهم بحسب الأعمال، ولا يبعُدُ أن يكونوا بحَسَبِ ذلك هم شرَّ جميع البرية؛ لِمَا أنَّ كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ومشاهدةِ معجزاته الذاتية والخارجية ووَعْدِ الإيمان به عليه الصلاة والسلام، ومع إدخالِهم به الشبهةَ في قلوب مَن يأتي بعدهم، وتسبُّبِهم به ضلالَ كثيرٍ من الناس، إلى غير ذلك مما تضمَّنه واستَلْزَمَه من القبائح = شرَّ كفرٍ وأقبحَه لا يتسنَّى مثلُه لأحدٍ من البشر إلى يوم القيامة، وكذا سائر أعمالهم: من تحريف الكَلِم عن مواضعه، وصدِّ الناس عنه ﷺ، ومحاربتهم إياه عليه الصلاة والسلام، وكونُ كفرِ فرعونَ وعاقر الناقة وفِعْلِهما بتلك المثابة غيرُ مسلَّمٍ، ويلتزم دخولُ المنافقين في عموم الذين كفروا، أو كونُ كفرهم وأعمالهم دون كفرِ وأعمالِ المذكورين. وفيه شيءٌ لا يَخْفَى فتأمَّل.

وقيل: ليس المراد بأولئك الذين كفروا أقواماً مخصوصين وهم المحدَّث عنهم أولاً، بل الأعمَّ الشاملَ لهم ولغيرهم من سالف الدهر إلى آخره. وهو على ما فيه لا يتمُّ بدون حمل «البَرِيَّة» على البشر، فلا تغفل.

وقرأ الأعرج وابنُ عامر ونافع: «البريئة» هنا وفيما بعدُ بالهمزة[1]، فقيل: هو

---

(١) التيسير ص٢٢٤، والنشر ١/ ٤٠٧ عن نافع وابن ذكوان، والكلام من البحر ٨/ ٤٩٩.

الأصل، من بَرَأهم الله تعالى بمعنى: ابتدأهم واخترَعَ خَلْقَهم، فهي فعيلةٌ بمعنى مفعولة، لكنَّ عامة العرب إلا أهلَ مكة التزموا تسهيلَ الهمزة بالإبدال والإدغام، فقالوا: البريَّة، كما قالوا: الذريَّة والخابِيَة[1].

وقيل: ليس بالأصل، وإنما «البرية» بغير همزٍ من البَرَى المقصورِ يعني التراب، فهو أصلٌ برأسه، والقراءتان مختلفتان أصلاً ومادةً ومتفقتان معنًى في رأي، وهو أن يكون المراد عليهما البَشَر، ومختلفتان فيه أيضاً في رأي آخَرَ، وهو أن يكون المراد بالمهموز الخليقةَ الشاملةَ للملائكة والجنِّ كالبشر، وبغير المهموز البشرَ المخلوقون من التراب فقط.

وأيًّا ما كان فليست القراءة بالهمز خطأً، كيف وقد نُقلت عمَّن ثبتت عصمتُه؟ مع أنَّ الهمز لغةُ قومِ مَن أُنزل عليه الكتابُ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيانِ سوء حال الكفرة، جرياً على السنَّةِ القرآنية مِن شَفْعِ الترهيب بالترغيب، أو هو على ما أشرنا إليه سابقاً.

وقال عصام الدين: إن قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) إلخ كالتأكيد لقوله تعالى: (وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ) إذ لا تحقيقَ لكونها الملةَ القيِّمةَ فوق أن يكون جزاءُ المُعْرِضِ هذا وجزاءُ الممتثلِ ذلك، إلا أنَّ ذلك اقتضى قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) إلخ، وكأنه فُصل لتخييل عدم المناسبة بين الجملتين، لا في المسنَد إليه ولا في المسند.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بما هو الغايةُ القاصيةُ من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد: «هم خيار البرية»[2] وهو جمع خير كجياد وجيد.

---

(١) الخابية: الجرة الكبيرة، وأصلها: الخابئة بالهمز، وربما جرت على الأصل فهمزت. ينظر معجم متن اللغة (خبأ) و(خبي)، والدر المصون ١/ ٤٠٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٧، والبحر ٨/ ٤٩٩.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بمقابلةِ ما لهم من الإيمان والطاعات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ تقدَّمت نظائره.

وفي تقديم مَدْحِهم بخير البرية، وذِكْرِ الجزاء المؤذِنِ بكونِ ما مُنح في مقابلةِ ما وُصفوا به، وبيانِ كونه من عنده تعالى، والتعرُّضِ لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم، وجَمْعِ الجنات وتقييدِها بالإضافة وبما يزيدها نعيماً، وتأكيدِ الخلود بالأُبود = من الدلالة على غاية حُسْنِ حالهم ما لا يخفى.

والظاهر أنَّ جملة «هم خير البرية» خبرُ اسم الإشارة، وكذا ما بعدُ، وزعم بعض الأجلَّة أنَّ الأنسب بالعديل السابق أن تُجعلَ معترضةً، ويكونَ الخبر ما بعدها، وفيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ نحويٌّ، وإخبارٌ عمَّا تفضَّل عز وجل به زيادةً على ما ذكر من أجزية أعمالهم، ويجوز أن يكون بيانيًّا جواباً لمن يقول: ألهم فوق ذلك أمرٌ آخرُ؟ وجوِّز أن يكون خبراً بعد خبرٍ، أو حالاً بتقدير «قد» أو بدونه.

وجوِّز أن يكون دعاءً لهم من ربِّهم، وهو مجازٌ عن الإيجاد مع زيادةِ التكريم. وهو خلافُ الظاهر، ويُبْعِدُه عطفُ قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ عليه. وعلِّل رضاهم بأنهم بلغوا من المطالب قاصيتَها، ومن المآرب ناصيتَها، وأُتيح لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ فإنَّ الخشية ملاكُ السعادة الحقيقية والفوزِ بالمراتب العَلِيَّة؛ إذ لولاها لم تترك المناهي والمعاصي، ولا استُعِدَّ ليوم يؤخذ فيه بالأقدام والنواصي، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مجرد الإيمان والعملِ الصالح ليس موصلاً إلى أقصى المراتب، ورضوانٍ من الله أكبر، بل الموصِلُ له خشيةُ الله تعالى، وإنما يخشى الله من عباده العلماءُ، ولذا قال الجنيد قدس سره: الرضا على قَدْرِ قوة العلم والرسوخِ في المعرفة.

وقال عصام الدين: الأظهر أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى ما يترتَّب عليه الجزاء

والرضوان من الإيمان والعمل الصالح. وتعقّب بأنَّ فيه غفلةً عما ذكر، وعن أنه لا يكون حينئذ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلخ كبيرُ فائدةٍ.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية المُعرِبةِ عن المالكية والتربية؛ للإشعارِ بعلة الخشية، والتحذيرِ من الاغترار بالتربية.

واستُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ على أنَّ البشر أفضلُ من المَلَك؛ لظهورِ أنَّ المراد بـ «الذين آمنوا»: المؤمنون من البشر، وفي الآثار ما يدلُّ على ذلك؛ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً: «أتعجبون لمنزلة الملائكة من الله تعالى، والذي نفسي بيده لمنزلةُ العبد المؤمنِ عند الله تعالى يوم القيامة أعظمُ من منزلة المَلَك، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»[1].

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، مَن أكرمُ الخَلْقِ على الله تعالى؟ قال: «يا عائشة أمَا تقرئين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»[2].

وأنت تعلم أنَّ هذا ظاهرٌ في أنَّ المراد بالبرية الخليقةُ مطلقاً ليتمَّ الاستدلالُ، ثم إنه يحتاج أيضاً إلى إدخال الأنبياء عليهم السلام في عموم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» بأنْ لا يرادَ بهم قومٌ بخصوصهم؛ إذ لو لم يدخلوا لزم تفضيلُ عوامِّ البشر - أي: الذين ليسوا بأنبياء منهم - على خواصِّ الملائكة، أعني رسلَهم عليهم السلام، وذلك مِمَّا لم يذهب إليه أحدٌ من أهل السنَّة، بل هم يكفِّرون مَن يقول به، فليُتَفَطَّنْ.

والإمام قد ضعَّف الاستدلال في تفسيره[3] بما لا يخلو عن بحثٍ.

ولعل الأبعدَ عن القيلِ والقالِ جَعْلُ الحصر إضافيًّا بالنسبة إلى ما يزعمه أهل

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ٣٢/ ٥٢.

الكتاب والمشركون قالاً أو حالاً من أنهم هم خيرُ البرية، وكذا يُجْعَلُ الحصر السابق بالنسبة إلى ما يزعمونه من أن المؤمنين هم شرُّ البرية، وصحةُ ما سبق من الآثار في حيِّز المنع.

ثم الظاهرُ أنَّ المراد بـ «الذين آمنوا» إلخ مقابل «الذين كفروا» لا قومٌ من الذين اتَّصفوا بما في حيِّز الصلة بخصوصهم، وزعم بعضٌ أنهم مخصوصون؛ فقد أخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ هم أنت وشيعتُك، وموعدي وموعدُكم الحوضُ إذا جَثَتِ الأمم للحساب تُدعَون غرًّا محجَّلين»[1].

ورَوَى نحوَه الإماميةُ عن يزيد بن شراحيل الأنصاريِّ كاتبِ الأمير كرم الله تعالى وجهه، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك له عند الوفاة، ورأسُه الشريفُ على صدره رضي الله عنه[2].

وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه وكرم وجهه: «هو أنت وشيعتُك يوم القيامة راضين مرضيِّين»[3]. وذلك ظاهر في التخصيص.

وكذا ما ذكره الطبرسيُّ الإماميُّ في «مجمع البيان» عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس أنه قال في الآية: نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأهلِ بيته[4]. وهذا ـ إن سلِّمتْ صحتُه ـ لا محذورَ فيه؛ إذ لا يستدعي التخصيصَ بل الدخولَ في العموم، وهم بلا شبهةٍ داخلون فيه دخولاً أوليًّا، وأمَّا ما تقدَّم فلا تسلَّم صحته، فإنه يلزم عليه أن يكون عليٌّ كرم الله تعالى وجهه خيراً من

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩.
(٢) مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٧٩، وعزاه في منهاج السنة ٧/ ٢٥٨ لأبي نعيم، وقال: هذا مما هو كذب موضوع باتفاق العلماء وأهل المعرفة بالمنقولات.
(٤) مجمع البيان ٣٠/ ٢٠٣ ومقاتل ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

رسول الله ﷺ، والإماميةُ وإن قالوا إنه ﷺ خيرٌ من الأنبياء حتى أولي العزم عليهم السلام، ومن الملائكة حتى المقرَّبين عليهم السلام، لا يقولون بخيريته من رسول الله ﷺ.

فإنْ قالوا بأنَّ «البرية» على ذلك مخصوصةٌ بمن عَدَاه عليه الصلاة والسلام للدليل الدالِّ على أنه ﷺ خيرٌ منه كرم الله تعالى وجهه.

قيل: إنها مخصوصةٌ أيضاً بمن عدا الأنبياء والملائكة، ومَن قال أهلُ السنَّة بخيريته؛ للدليل الدالِّ على خيريتهم.

وبالجملة لا ينبغي أن يُرتاب في عدم تخصيص «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» بالأمير كرم الله تعالى وجهه وشيعتِه، ولا به ﷺ وأهلِ بيته، وإنَّ دون إثبات صحة تلك الأخبار خَرْطُ القتاد، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ الروايات في أنَّ هذه السورةَ قد نُسخ منها كثيرٌ كثيرةٌ، منها ما أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ والحاكم وصحَّحاه[١] عن أبيٍّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقرأ فيها: «ولو أنَّ ابن آدم سأل وادياً من مالٍ فأُعْطِيَه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأُعْطِيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله على مَن تاب، وإنَّ الدين عند الله الحنيفيةُ، غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية، ومَن يفعل ذلك[٢] فلن يُكْفَره»[٣].

وفي بعض الآثار أنَّ النبي ﷺ أقرأه هكذا: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكِّين حتى تأتيهم البينة، رسولٌ من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتبٌ قيِّمة، إنَّ أَقْوَمَ الدِّينِ الحنيفيةُ مسلمةً غيرَ مشركةٍ ولا يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ،

(١) في الأصل و(م): وصححه، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ٣٧٨، والكلام منه.
(٢) كذا في الأصل و(م) والدر، والذي في مصادر التخريج: خيراً.
(٣) مسند أحمد (٢١٢٠٢)، وسنن الترمذي (٣٧٩٣)، والمستدرك ٢/ ٢٢٤ و٥٣١، وأخرجه أيضاً الضياء في المختارة (١١٦٣). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومَن يعمل صالحاً فلن يُكْفَره، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينةُ، إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لَمَّا جاءهم أولئك عند الله شرُّ البرية، ما كان الناس إلا أمةً واحدةً ثم أرسل الله النبيين مبشِّرين ومنذرين يأمرون الناس، يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده، أولئك عند الله خيرُ البرية، جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه» أخرج ذلك ابن مردويه عن أبيٍّ رضي الله عنه[1]، وهو مخالفٌ لِمَا صحَّ عنه، فلا يعوَّلُ عليه كما لا يَخْفَى على العارفِ بعِلْمِ الحديث.

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧٨، وسلف ١/ ١٤٨-١٤٩.

(سورة البيّنة)

(مُختَلَف فيها، وهي ثمان آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ
ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى وأهل الرجل أخصّ الناس به وأهل الإسلام من يدين به ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر وحذف لأن صلة «الذين» تدلّ عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة والمراد محمد ﷺ يقول: لم يتركوا كفرهم حتى يبعث محمد ﷺ، فلما بعث أسلم بعض وثبت على الكفر بعض ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي محمد عليه السلام وهو بدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ﴿يَتْلُوا۟﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل ﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة البيّنة) ويُقال: سورة القيامة وسورة المنفكين وسورة البرية وسورة لم يكن **(مُختَلَف فيها)** فقيل: مكيّة وقيل: مدنيّة **(وهي ثمان آيات)** وأربع وتسعون كلمة وثلاثمائة وتسعون حرفًا. اهـ خطيب. وفي الخازن وثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفًا.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ فمنهم مَن أنكر نبوّته بغيًا وحسدًا، ومنهم مَن آمن. وإنما أفرد أهل الكتاب بعدما جمع أولًا بينهم وبين المشركين، لأنهم كانوا على علم به لِوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان مَن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ يعني في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير شرك ولا نفاق ﴿حُنَفَآءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ (ٱلْقَيِّمَةِ)﴾ أي دين الملّة القيّمة ﴿(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ) فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ **(ونافع يهمزهما والقراء على التخفيف)**، والنبيّ والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفضِ الأصل ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضا ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ وقوله: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ يدلّ على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة، لأن البرية الخلق، واشتقاقها من برأ الله الخلق. وقيل: اشتقاقها **(من البرَى)** وهو التراب، ولو كان كذلك لما قرءوا ﴿البريئة﴾ بالهمز كذا قاله **(الزّجّاج)** والله أعلم.

قوله: (﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾) بمعنى المستقيمة. **قوله:** (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾) الشرك يطلق على مطلق الكفر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النّساء: الآية ٤٨]... الخ ولذا استدلّ بهذه الآية على خلود الكفار مطلقًا ولا حاجة إليه فإن هذه الآية صريحة في العموم ويكون الشرك أخص من الكفر وهو المراد هنا.اهـ شهاب رحمه الله. **قوله:** **(ونافع بهمزهما والقراء على التخفيف)** أي قرأ نافع وكذا ابن ذكوان عن ابن عامر «البريئة» بالهمزة على الأصل في الموضعين لأنها فعيلة من برأ الله الخلق أي ابتدأه واخترعه. وقرأ الباقون بياء مشددة بدون همزة كالنبيّ والذريّة فإن أصلهما الهمز. **قوله:** **(من البرَى)** المقصور في مختار الصحاح البرى التراب.اهـ **قوله:** **(الزجاج)** هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد رحمه الله.

تمّت سورة البيّنة بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الأكرم
وعلى آله وصحبه وسلّم